نظرات لابرويير[1]

- ١١ -

لاتتم النظرات التى اقتبسناها من الأدب الفرنسى من غير اقتباس بعض نظرات (لابرويير) والتعليق عليها بما يناسبها من الآراء، وقد ترجم حياته ونقده الكاتب المطلع جورج نيقولاوس فى عدد ماضٍ من أعداد المقتطف، ولكنه لم يكثر من الاقتباس منه، وكنت قد اطلعت على إعلان عن ترجمة كتابه الأخلاق، ولكنى لم أره، وفى بعض التعليق الذى نضيفه إلى نظراته مايجلوها بذكر ما يوافقها أو يخالفها من آراء المفكرين. وقد كان لابرويير معاصراً للاروشفوكولد، وهو ينحو نحوه، وتارة يرتفع إلى مستواه، وتارةً ينخفض عنه، ونجده فى بعض نظراته يتردد فى رد فضائل الإنسان كلها وعيوبه إلى الأثرة وحب الذات كما ردها لاروشفوكولد، والمفكرون مختلفون فى هذا الرد كما سيتضح، وقد درس لابرويير القضاء وزاول منصبًا إداريا فى نورمانديا، ثم عين مربيًا ومعلمًا لدوق بوربون حفيد أمير كوندى، وانتخب عضواً فى المعهد العلمى الفرنسى، وعندما أدركته المنية كان قد ألَّف من هذه النظرات ألفًا ومئة، فلعلَّ إكثاره سبب تفاوته فيها، وقد وصف الفلاح الفرنسى وصفًا ينذر بالثورة الفرنسية قبل أوانها.

وهذه بعض نظراته وأفكاره:

١ ـ إذا صحَّ مايقولون من أننا نشفق على التعساء إشفاقًا على أنفسنا أن نصير يومًا مثلهم تعساء، فلماذا لا نعطف عليهم ولانحسن إليهم ولا نشاركهم فيما ننال من النعمة إلاَّ بهذا القدر الزهيد التافه؟!، ولهذا أسباب منها: أنه اذا كان جانب من النفس يعطف ويحسن خشية أن تصير مثل من تحسن إليه، فإن للأثرة جوانب

(١) المقتطف: ١من يناير سنه ١٩٤٩.

obeikandi.com

أخرى تدفعها إلى الاستئثار بخيرات الحياة، ثم إن الإحسان الزهيد التافه قد يُرضى ضمير المحسن فلا يُحسُّ ألـمًا، بل إن الرحمة من غير إحسان ومعونة قد يعدها من يشعر بها تكفيرًا عن كثير من وسائل الاستئثار بالخير، وإن لم يصحب الرحمة برّ فتعيد إلى نفس صاحبها الاطمئنان، وتدعوه إلى استئناف الكفاح والمنافسة في خيرات الحياة. ومن عوامل الزهد في البر والإحسان الخوف إذا بذل المرء ما عنده أن يصير مثل من يحسن إليه، وكل هذا لا ينافى أن المرء قد يحسن إحسانًا زهيدًا تافهًا خشية أن يصير مثل من أحسن إليه، وإن الإحسان هنا من الأثرة وباعثه حب الذات، والتكفير عن وسائل الاستئثار أو عن السعادة.

على أن كثيرًا من المفكرين ينكرون أن تكون كل دوافع النفس أساسها واحدٌ، وينكرون أن تكون كلها مردودة إلى عامل الأثرة وحب الذات، قال هازليت: إن أحاسيس النفس المتضاربة وأهواءها المتباينة وهواجسها المتنافرة تُبطل أن يكون للنفس أساس واحد وهو حب الذات، إذ كثيرًا ما يتعس المرء نفسه لأسباب تافهة لاتفيده بل تضره، على أن هذا لايمنع أن يكون مَرَدُّ كثير من الأمور التى تتعس المرء إلى الأثرة الخرقاء الحمقاء التى تتعس المرء وهو يظن أنها تسعده، كما لايمنع أن يكون الإيثار نوعًا من الأثرة كأن ترجو به النفس العلاء والحمد وطيب الذكر والظفر بالإيثار، فهى تتجنب الأثرة وتختار الإيثار لأوجهٍ من النفع. وإذا أخذ الإنسان برأى شوبنهور فى وحدة الحياة وأنه مظهر من مظاهرها فحسب، وأن اعتبار نفسه وحدة مستقلة من خطأ الحواس والإحساس استطاع أن يتخلص من بعض أثرته إلاَّ إذا عدَّ نفسه الممثِّل الأعظم لوحدة الحياة وإرادتها، وأنه من أجل ذلك أحق بالخيرات والاستئثار بها. وكان (كانت) الفيلسوف الألمانى يعد الواجب المفروض فكرة أولية فى النفس، وقال: ينبغى أن يعمل الإنسان بحيث يصح أن يكون عمله وخلقه مبدءًا عاما، وهذا مشتق من قول جان جاك روسو: إن كل إنسان ينبغى أن تكون إرادته الخاصة مطابقة للارادة العامة للأمة. وأعتقد أن كل هذه الآراء مشتقة من الفكرة القديمة التى توجد فى كتب الأدب العربية كما توجد فى الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام وهى: ينبغى للمرء أن يعامل الناس كما يود أن يعامله الناس، أى حب للناس ما

تحبه لنفسك. ومن الغريب أن الأستاذ توما هوكسلى (أى هوكسلى الكبير) فى مجموعة أرسطو طاليس رفض هذا المبدأ بدعوى أن كل إنسان يود أن يغتفر الناس قسوته وجرائمه وآثامه، فلو اغتفرت كل الآثام والجرائم أصبح العالم فوضى وانتشر الشر. وبديهى أن هوكسلى فسرها على غير معناها، إذ أن معناها: عامل الناس بمثل ما تود أن يعاملوك به من التعاون التام والامتناع عن القسوة والآثام فى معاملتهم لك، على أن أداء الواجب ليس فكرة أولية كما زعم (كانت) بل هى فكرة مكتسبة، ولا هى راسخة فى النفوس، بل كثيراً ما تنتفى فى النفس وتحل محلها الأثرة الجامحة القاسية. ولكن مالا شك فيه أن الإنسان قد تتأصل فيه روح التضحية حتى يكون عمله بباعث نفسى عكس قوله ورأيه، كما فى قصة روبرت جرانت الكاتب الأمريكى المسماة (عمله ضد رأيه) وهى قصة رجل مفكر أبى أن يحبذ عمل إنسان أودى بحياته فى إنقاذه طفلاً صغيراً؛ لأن هذا المضحى الذى أنقذ الطفل ومات فى أثناء إنقاذه قد خلف زوجة وسبعة أطفال وهو كاسب رزقهم وتحمل المنكر عليه عمله اشمئزاز أصدقائه من رأيه، ولكنه بعد زمن فعل مثل الفعل الذى أنكر تحبيذه بدافع خفى من نفسه فأنقذ طفلاً من الهلاك وهلك بسبب ذلك، وهذا يذكرنى قصة (على الحدود) لموريس لى بلان. وبها مفكر يرى أن الحروب لاتبطل الاَّ إذا امتنع كل إنسان عن القتال حتى ولو غزيت أمته فى عقر دارها. ولكنه لما رأى الألمان أغاروا على الحدود حمل سلاحه بدافع غريزى من نفسه وذهب ليقاتلهم وليدافع عنها، وهذا غير ما فعل رومان رولان الكاتب الفرنسى الذى أبى الحرب وأبى القتال ورفض حمل السلاح وترك فرنسا وذهب إلى سويسرا فسقط فى نظر كثير من الفرنسيين. وقد قال «كانت»: إن المرء لا يستطيع أن يحكم أن الواجب هو الذى يدفعه إلى عمل من الأعمال إلاَّ إذا كان هذا العمل يخالف رغباته المحبوبة السارة، وليس معنى ذلك أن الواجب لايكون واجباً إلاَّ إذا كان كريهًا بغيضًا مخيفًا، وإنما هذه فكاهة من شيلر الشاعر الألمانى يداعب بها «كانت» وقد كان معجبًا به، وبعد كل هذه الجولة فى التفكير فإننا لم نقطع برأى باتّ فى تساؤل لا برويير.

٢ ـ قلما يلتذ المرء أن يرى نفسه مكلفًا معاونة إنسان فى حاجة اليه. ولكن من الغريب أن الحظ السعيد إذا جعل هذا الإنسان فى غنى عنه وعن مساعدته فانه قد يسر لرفع العبء عنه، ولكن سروره لايكون تاما، بل قد يمازجه شىء من الامتعاض كأنما ذلك الحظ السعيد الذى أغنى ذلك الإنسان عنه قد انتقص من قدره، لأن احتياج المحتاج إليه يشبع غروره وزهوه بالرغم من عبئه. وإشباع زهوه يدعو اطمئنانه إلى قدر نفسه وعظمتها، أو قل إن الإثرة فى باطن نفسه كانت تفضل أن يزاد سعدًا على سعد بأن ينال الحظ السعيد الذى ناله المحتاج إليه، ثم يظل ذلك المحتاج إليه محتاجًا إليه. وكذلك إذا نال صديق نعمة أو منزلة أو جاهًا فان المرء يبتهج بما نال صديقه ويسر له، ولكن سروره كثيرًا ما يمازجه امتعاض خفى، فالسرور بنعمة الصديق لا ينفى وجود عكسه من حسد أو تنغيص أو ألم، لأنه لم يزد حظا على حظ بدل أن ينال الحظ صديقه، وهذا من اجتماع الأضداد فى النفس وقد تجتمع.

٣ ـ إن الذى يستطيع أن يصبر صبرًا طويلاً قبل نيل ما يريد لاييئس كل اليأس إذا لم ينله. أما الذى يترقب نيله بشغف ولهفة لاصبر فيهما فإنه أكثر تعرضًا لليأس، ثم هو إذا نال ما يريد لايرى ما ناله بعد آلام اللهفة كفاءً لما قاسى فى سبيل توقع نيله وارتقابه من عنت الشغف واللهفة، فكأنه لم ينله كله أو بعضه.

وهذا إذا كان الشغف به لايزال فى نفسه كله أو بعضه، أما إذا كان قد زال أكثره فإن مارسيل بروست صادق فى قوله: إنه إذا تحققت الرغائب بعد زوال الشغف بها قنعنا منها بأقل مما كنا نقنع من قبل؛ إذْ الشغف لايزال قاهرًا حادا.

٤ ـ الإنسان يزداد مع الزمن ألفة لمن صنع معهم جميلاً وأحسن إليهم، ولكنه يزداد نفورًا ممن أساء إليهم، وذلك لأن رؤية الطائفة الأولى تزيد حسن رأيه فى نفسه، أما الطائفة الثانية فإن رؤيتها تذكره إساءته إليهم فتقلل من حسن رأيه فى نفسه حتى ولو كان جانب من نفسه يباهى بقدرته على الإساءَة فإن جانبًا آخر من نفسه يبصره بعيوب نفسه ولو كان ذلك عن طريق الوعى الباطن الخفى.

٥ ـ الناس يذمون الإسراف فى كل الأمور إلاَّ الإسراف فى شكر نعمتهم عليهم، فإنهم قلما يذمون الإسراف فى شكر نعمتهم ـ إلا إذا فطنوا إلى أنه يراد به المزيد من النعم التى لايريدون أن يجودوا بها ـ ولكن الناس فى أكثر الأحوال يطلبون المزيد من شكر نعمتهم مهما بالغ الشاكر فى شكرها، ولا يرون شكره كفاءً لما أولوه من النعمة، بل يرون أنه دائمًا مدين لهم بالشكر.

٦ ـ الحديث المحبوب لدى القلب أطيب من الحديث المقنع للعقل بحججه. ومن أجل ذلك تُصغى النفس إلى ما تود أن تسمعه أكثر من إصغائها إلى ما يقنعها ـ بل هى تصنع أكثر من ذلك فتستنبط للحديث الذى تود أن تسمعه براهين وأدلة كى تقنع نفسها أنه أقنعها، وأنها لم تصغ إليه لأنه محبوب تود سماعه، بل أصغت إليه لأنه يدلى بالمنطق الحق والبرهان الصادق، وأحيانًا لاتكلف نفسها مئونة ذلك وتكتفى بأنه حديث شائق محبوب تود سماعه.

٧ ـ الرجل يصعب عليه، لاسيما إذا كان على شىء من الكبر، أن يغتفر لآخر اطلاعه على سقطة أو زلة أو سيئة بدرت منه، وخاصة إن كان عند المطلع على زلته أسباب وجيهة تدعوه إلى مؤاخذته أو لومه، ولا يهدأ غضب صاحب السقطة أو الزلة أو السيئة إلاَّ إذا ألزم الآخر مثلها وأظهره فى مظهر شبيه بها، فكأنه بذلك يمحو أو يخفى أو يهوّن من أمر زلته أو عيبه، ويزداد قدرًا لدى نفسه، ولما كانت العيوب والسيئات شائعة بين الناس كثيرًا ما يتعاونون لتهوين زلاتهم بإلزام غيرهم سيئات مثلها.

٨ ـ كثيرًا ما تصدر من المرء أعمال عظيمة وإحساسات نبيلة فتنسب إلى حب الخير الغريزى فى النفس البشرية. والحقيقة أنها بسبب ما اكتسبه بالعادة والمراس والمحاكاة للخلق السائد الممدوح لدى الناس، فإن هذه الأمور تكسب المرء قوة خلقية، أما غريزة الخير فإنها تضعف لولا العادة والقدرة، وهما يزيدانها تمكنًا.

٩ ـ كثيرًا ما يكون ضعف المرء وعجزه باعثين له على البغض والكره والمقت، إذْ لو كان قادراً غير عاجز للجأ إلى وسائل أخرى. والرغبة فى الانتقام وطول التفكير فيه هما بسبب هذا الضعف؛ لأنه لم تتم له بعد أسباب القدرة عليه،

فضعف المرء يدعوه إلى كره الناس. ولكن كسله وحبه الراحة والدعة والاطمئنان والسكينة أمور قد تدعوه إلى التخلى عن كرهه وعن محاولة التشفى، ومن أجل ذلك كان من الصعب أن يقهر المرء غضبه فى أول الأمر إذا غضب على إنسان، ولكن إذا تراخى به الزمن كان من الصعب أن يعانى شعور الغضب والبغض على الدوام؛ لأنه يقلل من راحته وهناءته، إلاَّ إذا جعل للسخط والرضا، تداولاً وتعاقبًا على نفسه.

١٠ ـ من الصعب محاولة إغراء المرء باتباع رأيك فى الأمور الكبيرة قبل أن تتمكن من أن تعوّده على اتباعه فى الأمور الصغيرة التافهة. فإن المرء يأنف أن يعمل حسب ما يوحى به غيره ـ حتى ولو كان صوابًا ـ إلاَّ إذا كان الموحى المغرى صاحب لباقة تمنع الموحى إليه من الشعور بالأنفة والغضاضة والهوان إذا اتبع رأيه، وتنيم إباء نفسه أن ينقاد لرأى غيره، فإذا لم يكن المغرى بالرأى الموحى به صاحب لباقة كهذه اللباقة دفع المرء الاستحياء أو الكبر أو هوى النفس إلى رفض ذلك الإغراء والتحكم، ولكنه إذا تعوَّد أن ينقاد فى الأمور الصغيرة التى لايرى أنفة فى الموافقة عليها بسبب زهادتها وتفاهتها، انزلق واسترسل به التعود فينقاد فى الأمور الكبيرة. وهذه حقيقة يعرفها الناجحون فى الحياة الذين يحملون الناس على قضاء مايريدون، وقد يحملون من هم أكبر عقلاً منهم، ومن تظن أنهم لاينقادون لأمثالهم، وإنما يفعلون ذلك باتباع هذه الحقيقة النفسية السيكولوجية، وكثيراً ما يكون الضعف سبب انقياد المرء لرأى غيره. ولكن الكسل وحب الراحة من أسباب هذا الانقياد، وهى حقيقة يستغلها ويستثمرها ذوو الإلحاح لنيل مطالبهم، وكأنهم ينتهزون فرصة استرخاء الكسل والدعة ومحبة الراحة ويعرفون صفاتها وأوقاتها فيهجمون فى حالاتها على من يريدون الإلحاح معه باللّباقة كتلك التى وصفت.

١١ ـ قد يكون من الدهاء أن نعامل أعداءنا على أمل أن يكونوا يومًا أصدقاءنا، وأن نعيش مع أصدقائنا على حذر من أن يصيروا يومًا أعداءنا، ولكن هذا يجافى أصول المودة والعداوة. وقد يدعو إلى أخلاق غير فاضلة وإلى تكلف ماليس من الصدق والنبل، وإلى استخدام الكذب والرياء. وأفضل من ذلك ألا

يصاحب المرء إلاَّ ذوى العقل والأمانة والشهامة الذين إذا صاروا أعداءه عادوا من غير أن يتعدوا حدود العقل والأمانة والشهامة ـ ولكن هل يستطيع دائمًا أن يميز من لايتعدون حدود العقل والأمانة والشهامة فى عداوتهم؟ فى بعض الأحايين يستطيع تمييزهم بأن يفحص معاملتهم لأعدائهم قبل أن يصادقهم. فإذا وجد أنهم يعاملون أعداءهم بالخيانة وقلة الشهامة والرعونة، استطاع أن يعرف أنهم لو صاحبوه ثم عادوه، عاملوه بمثل تلك المعاملة التى تدل على لؤم العداوة وخستها وغدرها وحماقتها.

١٢ـ لو أننا لم نسرّ وتأنينا فلم نضحك إلاَّ بعد زوال جميع منغصات حياتنا، وبعد كمال سعادتنا، لكان من المخوف أن نموت قبل أن نضحك. والحقيقة أن الضحك أو حتى تكلف الضحك، قد يقلل من متاعب الحياة، ولكن كثيرًا من الناس يتشبثون بمنغصات حياتهم ومتاعبها، بألا يبيحوا لأنفسهم الضحك إلاَّ بعد زوالها، فيكون تشبثهم بها بحرمان أنفسهم من الضحك باعثاً على بقاء متاعبهم وثقل عبئها.

١٣ ـ أحب الرغبات إلى الإنسان التى لاتتحقق؛ لأنها متى تحققت وفاز بها ألفها واعتادها ووجد بعض الملل فى نفسه إليها سبيلاً فى بعض الأحايين فتقل قيمتها. وكثيرًا ما نرى الرغبات التى تتحقق ويفوز بها الراغب تواتيه فى غير أوانها الذى يسعد بها فيه أو توافيه فى حالات من حالات نفسه. وفى ظروف من الحياة تقلل من المتعة بها، ولهذه الأسباب كلها تقل قيمة الرغبات إذا تحققت مهما كانت عزيزة محبوبة قبل الوصول إليها فلا تقنع الفائز بها، ولا ترتاح نفسه، ولا تهدأ. وهو كذلك لا ترتاح نفسه، ولا تهدأ إذا لم تتحقق الرغبات بسبب ألم اللهفة؛ فالإنسان قلما يرضى سواء تحققت رغباته أو لم تتحقق. وفى هذا عظة له وعبرة لو يعتبر.

١٤ ـ إنَّ ألم الحزن لفقد من نحب أقل ثقلاً على النفس من نكد العيش مع من نكره ومن منغِّصات الحياة مع من نبغض؛ لأن ألم الحزن على الفقيد المحبوب يقلله مرور الأيام، ويكتسى وشيًا من الذكريات الجميلة التى تكسب

الحزن شيئاً من مباهج الجمال. أما العيش مع البغيض المكروه فإنه يزداد ثقلاً على النفس فتزداد به غما مادام دائماً لم يزل.

١٥ ـ المودة المستكملة الصادقة فى كل بواطنها ومظاهرها، أندر وأقل حدوثًا من العشق الشديد. وفى المودة نأتمن الصديق على أسرارنا بمحض إرادتنا، أما فى الحب فلا إرادة فيه، بل قد نذيع أسرارنا بالرغم منا. وقلما تزول الصداقة إلا لأسباب تدعو إلى نقصها كالغدر أو الإساءة التى لاتُقْبل، أو الجفاء الذى يدل على الغلظة، أما الحب فقد يوجد كأشد ما يكون بالرغم من هذه الأسباب. فإذا زال فقد يزول من غير ماسبب، بل يفيق المحب إلى أنه قد صار لايحب حبيبه وهو هو لم يتغير. وقد يولد الحب بغتة من غير إرادة أو تفكير. أما المودَّة فإنها فى حاجة إلى العشرة والألفة والزمن كى تنضج ثمراتها. وقد يكون أشد الحب الحب المباغت من أول نظرة. وربَّ نظرة إلى وجه جميل أو يد رشيقة قد تصنع بالقلب فى طرفه عين، مالا تصنعه أعوام طوال زاخرة بالعطف والمودة وأداء المعروف.

* * *

نظرات لورد بيكون[1]

ـ ١٢ ـ

من الغريب أن لورد بيكون من المفكرين الإنجليز الذين أُولع أهل الخيال والأهواء بهم، فتارةً يزعمون ـ كما قرأت فى مقال ـ أنه إدوارد السادس مع أنَّ بين ميلاديهما فرق يقرب من الجيل، ومات إدوارد السادس بعد ضعف ومرض وحضر موته الأطباء. وكان فرنسيس بيكون وهو غلام يصطحبه أبوه السير نيكولاس بيكون إلى قصر الملكة اليصابات، وكان من أعوانها، وكانت الملكة تداعبه فتسميه كاتبها أو وزيرها الصغير، وأسرته معروفة، والبيت الذى ولد فيه غير مجهول، وكل حوادث حياته حقائق معلومة، فليس فى حياته أى غموض. وبعض أهل الخيال والأهواء يدعون أنه كتب قصص شكسبير الشاعر العالمى، ولكن شكسبير كان مكثرًا من العمل، وبيكون كان مكثرًا من العمل، ويستحيل أن يقوم إنسان واحد بالعملين معًا مهما كانت قدرته، وبالرغم من أن بيكون كان أديبًا فإنه كان يعد البحث العلمى العملى أهم من الأدب، وقد مات بسبب أنه خرج فى يوم بارد كثير الثلج ليجرب تجربة علمية عملية نافعة وهى حفظ اللحوم بالثلج ومنعها من التعفن، وقد كان ينعى على القدماء تفضيل الفلسفة النظرية والأدبية على البحث العملى العلمى. وله مؤلفات كثيرة: فله كتاب الرسائل وكتاب حكمة القدماء فى أساطيرهم، وكتاب أقوال مشاهير الرجال، وكتاب أطلنطيس الجديدة، وكتاب تاريخ حياة هنرى السابع، وكتاب (نوفام أرجانوم) أى الأداة الجديدة فى العلم والتعليم، وكتاب تقدم العرفان؛ وعلاوة على ذلك فقد كان له عمله فى البرلمان وفى المحاكم فى سماع القضايا والحكم فيها وكتابة

(١) المقتطف: فبراير سنه ١٩٤٩.

أسباب حكمه بعد التفكير فيها، وكان مستشارًا لبعض وزراء الملك جيمس الأول يكتب لهم التقارير، ولم يشتهر بشيء من الشعر، مع أن بعض الأشراف لم يعدوا كتابة الشعر فى عهده حطة لهم، فكيف كان يستطيع مع كل هذه الأعمال أن يؤلف قصص شكسبير العديدة؟ على أن فى قصص شكسبير من الأغاليط التاريخية مالا تقلل من عظمة عبقريته كشاعر، ولكنها هى والأغلاط الجغرافية ما كان يقع فيها مؤرخ مثل بيكون. وشكسبير فى بعض قصصه يشكو حظ الممثل أو الأديب أو نكاية زملائه، وهذا لاينطبق على بيكون، كما أن شكسبير كان فى بعض قصصه يداعب أو يسخر من قول بعض الشعراء. وهذا أيضًا يستبعد من بيكون الذى يزعم أهل الأهواء أنه قد ترفع عن طبقة الشعراء وإن كان أكبرهم فنسب قصصه إلى غيره. أما بحوثه العلمية التى كان يقضى بها وقت فراغه وآراؤه فيها فليست كلها مقبولة لدى علماء هذا العصر. ولا غرابة فى ذلك، ولم يكن مبتكرًا فكرة تقديم الخبرة والتجربة فى العلم والوصول من الشواهد الخاصة إلى القاعدة العامة، ولكنه أذاعها وجعل هذه الفكرة مبدأ عاما واشترطها فى البحث العلمى العملى فى كتابه عن العلم والتعلم، ولاشك أن عقله كان أكبر من قلبه، ولا داعى للخوض فيما اتهم به من العيوب إلاَّ أنه من الضرورى أن نقول إنه حوكم لقبوله الرشوة فى القضاء واعترف بذلك قائلاً: إن أحكامه بالرغم من ذلك كانت وفق العدل، وقد ندم على ما فعل، وقد عومل بالرفق فى محاكمته ثمَّ مالبث أن أطلق سراحه وأسقطت عنه الغرامة التى فرضت عليه.

وهذه النظرات من رسائله تدل علي كبر عقله وخبرته بالنفوس البشرية:

١ ـ الحق كضوء النهار لايزين قناع زخارف الحياة المموَّهة وأباطيلها وبهارجها وآمال الناس فيها وأعمالهم ونزعات نفوسهم إذا كان الحق خالصًا من شائبة الخداع للنفس، كما يزينها إذا كان مشوبًا بشيءٍ من الخداع للنفس بالباطل خداعًا قد يكون غير مُدْركٍ. وضوء هذا الحق، الحق المشوب بخداع النفس، قد يكون أشبه الأشياء بضوء الشموع فى المراقص المُقَنَّعة ليلاً يخفى نقائص ألوانها وبهارجها وحقيقتها ويكسبها شيئاً من الجمال المصطنع ويزين لباسها المستعار ويخفى بعض ما بها من ادعاء، ومن أجل ذلك كثيرًا ما يخالط الحق حتى من

غير تعمد للخلط شيءٌ من الباطل كى يقلل من نور الحق فلا ينمُّ على أكاذيب الحياة وهى كثيرة، وهل من شك فى أنك إذا سلبت من إنسانْ كل ما فى عقله من آراء لا أساس لها من الحق، ونزعت عنه كل آماله الباطلة التى تملقه وتزين له أمره وعيشه وتحثه على استئنافه والاطمئنان إليه وحرمته من مقاييس عقلية باطلة ومن أحكام وموازين يتشبث بها ومن أحلام فى الحياة جميلة لا حقيقة لها ولكنها تريحه وتسعفه ويتعلل ويتسلى بها - إذا نزعت من عقله ونفسه كل ذلك لم يبق له غير عقل ضامر هزيل ونفس ضئيلة حائرة خائبة، فالباطل قد يمازج الحق كما يمازج المعدنُ الخسيس الأشد صلابة الذهبَ الإبريزَ كى يزيده صلابة ويجعله أصلح، كنقودٍ فى المعاملات، وإن كان ينقص من قيمة عنصر الخليط.

٢ - جلال الموت وما يحاط به أشد رهبة من الموت، وبعض المفكرين يخيف الناس من الموت بأن يقيس ما فى الموت وهو تلف الجسم كله بما فى تهشم أصبع وهو جزء صغير من الجسم. وهو قياس غير صحيح؛ لأن الأعضاء الحيوية أقل تأثرًا بالألم، والألم فيها أسرع مفعولاً. فكثيرًا ما يموت الناس من غير إحساس كبير بالألم، وليس فى النفس إحساس قوى يعجز عن التغلب على الخوف من الموت، فالغيظ وطلب الثأر والحب وطلب المجد والإحساس بدافع الدفاع عن الشرف والحزن والخوف والشجاعة وحتى الإشفاق والرحمة وهى أرق الطباع - كلها أمور تستطيع التغلب على الخوف من الموت، وحتى الملل من الأمر المعتاد والمكرر قد يتغلب على الخوف من الموت؛ فالموت إذاً أقل شدة وبأسًا وهولاً مما يصوره بعض القائلين.

٣ - من الحماقة والغفلة أن يريد المرء بغيظه وحنقه وكرهه وقسوته أن يحقق إرادة الله، فيؤدى ذلك إلى الإجرام وإلى مثل مذابح سان برثولوميو. لقد كان من الكفر والإجرام قول إبليس إنى أريد أن أصعد إلى عرش الله. أليس مما هو أشد كفرًا وإجرامًا أن يريد المرء إنزال الله من علىٍّ عرشه كى يشركه فى قسوة الإنسان إذ يتوهم أنه يخدم الله بقسوة مثل قسوة قرصان البحر.

٤ - إن من أعظم العظمة التى هى فى منزلة عظمة المعجزات أن يحكم المرء نفسه كل الحكم فيما ينوبه من حوادث الدهر. ويعجبنى قول سنكا الفيلسوف

الرومانى فى هذا الموضوع (أسمى ما يكون عجز المربوب إذا اقتدى باطمئنان الرب).

٥ ـ إن الحزن الذى تزينه أسباب الأمل والاطمئنان والإيمان كالثوب القاتم اللون المطرز بالخيوط الزاهية البهجة. فهو أملأ للعين وأشرح للصدر من السعادة التى تحيط بها المكاره والمخاوف المقلقة والتى تكون كالثوب الأبيض المطرز بالسواد.

٦ ـ مهما كان الرياء لازمًا فهو مظهر من مظاهر العجز فى الأمر الذى لجأ إليه المرائى؛ إذ لولا العجز فيه ما لجأ إلى الرياء.

٧ ـ من الناس من يتقنون الصراحة ويتخذونها خطة حتى يعرفوا بها، فإذا لجئوا إلى وسائل المكر والنفاق لم يصدق أحد أنهم من أهل المكر لما عهد من صراحتهم، فكأنهم بهذه الوسيلة يختفون فى مكرهم من أبصار الناس. وهذا يذكرنى قول أبى تمام الطائى:

سكنَ الكيدُ فيهمُ إن من أعْـ ظم إربٍ ألا تُسمى أريبا

٨ ـ الرجل الذى يقول كل ما يعرف كثيرآ ما يسوقه طبع الكلام وعادته حتى يقول مالا يعرف، ويدَّعى أنه شاهد مالم يشاهد، وحضر مالم يحضر. والناس يأتمنون الرجل الكثير الصمت على أسرارهم، والثرثار مكشوف العورة كالرجل العريان. وكما أن الثياب تزيد المرء وقارًا فالكتمان يزيده هيبة ووقارًا، وليس الكتمان باللسان وحده بل أبلغ منه الكتمان بضبط المرء تقاسيم وجهه وحكم تقاطيعها حتى لاتنم على مايكتم؛ لأن الناس يصدقون ماتنم عنه ملامح الوجه أكثر من تصديقهم كلامه وإن نمقه وزينه. ومن مزايا الكتمان أنه يدعو إلى استنامة أعدائه وإلى مباغتة مناضليه وأنه يدع لنفسه طريقًا للتراجع إذا اضطره الأمر؛ إذ لو أعلن أمره اضطر إلى المضى فيه أو إلى إظهار العجز والخيبة. وهو بكتمانه وسكوته وإصغائه بدل الكلام، يستطلع ما يريد أن يعرف من آراء الناس وأغراضهم وخططهم، لكن المبالغة فى الصمت والكتمان قد تغرى الناس بأن يظنوا به الجبن والوجل، ثم إن صمت مثل هذا المُبالغ قد يحير من يريد أن

يعاونه وأن يشركه فى أمره فيفقد ثقة بعض الناس، ولعلَّ هذا من أسباب شك الناس فيمن لايعاشرهم ولا يحادثهم.

٩ ـ يشترك الآباء والمعلمون والحكام والأتباع وأمثال هؤلاء فى تنمية روح المنافسة، فينمو التحاسد والتباغض فى نفوس الأطفال الصغار من حيث لايشعر القائمون بأمرهم الذين تسرهم عاقبة المنافسة العاجلة الفانية ولا يفطنون إلى مايمكنونه فى النفوس البشرية من عواقب تبقى مدى الأجيال وضررها فى الحياة كثير، وهو ضرر غير مقصور على عهد الطفولة. وإنما يلجئون إلى هذه الخطة لأنها فى نظرهم أسهل خطة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه الأطفال.

١٠ـ فى النفوس صفة لؤم ذائعة، وهى أن كل من لم يستطع إصلاح حاله يحاول إفساد حال غيره؛ ومن أجل ذلك كان ذوو العاهات والخصيان والشيوخ وأمثال هؤلاء من أشد الناس حسداً إلاّ إذْ صادف نقصهم نفسًا كبيرة تجعل نقصها زائداً فى شرفها وشفيعًا لمدحها، إذا يقال إن صاحبها أتى بالأمر العظيم بالرغم من عاهته أو نقصه. والحسد داء الأمم والدول ومضعفها، ولكنه قد يكبح جماح طغيان الحكام والمقربين لديهم إذا خشوا عاقبته، والحسد كالوباء فمن خشى الوباء كثيراً وذعر منه أصابته غائلته من الرعب. وكذلك من يذعره حسد الحاسد فيظهر الاستخذاء والضعف والذعر فينتهز الحاسد فرصة ذعره ويصيبه بسوء، وإذا فشا الحسد فى أمة أصاب السليم الصفات الكريم الأخلاق الفاضل النفس، كما يصيب الوباء السليم الجسم فيمرضه. وفى أمثال هذه البيئة التى فشا فيها الحسد يصبح الفضل نقصًا، والرأى السديد خرقًا، والعمل الصادق عملاً كاذبًا فى دعوى ذوى الحسد الذين يرون فى انقلاب الأمور وحقائقها إخفاءً لحسدهم ونقصهم، وهم مثل الزارع الذى يزرع الشوك والحسك فى الظلام بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشر الشوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو.

١١ ـ قال ديموستنيس الخطيب الأثينى: أول صفات الخطابة وثانيها وثالثها الجرأة فى الحركة والفعل. وكذلك ألزم صفات النجاح فى الحياة المدنية وأولها وثانيها وثالثها الجرأة، مع أن الجرأة تدل على أن تفكير صاحبها محدود؛ لأنه إذا

تشعب منه الفكر تردَّد فى شعابه وألهاه عن الجرأة وشغله عنها، فالجرأة أحطُّ من غيرها من الصفات الفاضلة، ومع ذلك فهى من صفات النجاح أولها وثانيها وثالثها.

١٢ ـ قد يكون المرء صالحًا جِدا حتى أنه من شدّة صلاحه لايصلح لمباشرة أى عمل من أعمال الدنيا بنجاح. والحقيقة هى أن النجاح فى الحياة قد يتطلب ـ إلاَّ إذا جاءَ عفوًا ـ شيئًا ولو قليلاً من المكر والاحتيال يخالط فضله وصلاحه، وقد يخفيه ذلك الفضل ولكنه موجود يخفى حتى على بعض من يتفكه ساخرًا بغباوة أغنياء الحرب إما حسدًا لهم، وإما دعابة يخالطها بعض الحسد ولو القليل منه، وإما جهلاً بأن الغباوة لاتجافى المكر والاحتيال. وأن المكَر من مظاهر العقل وهو من صفات النجاح، وكثيرًا ما يلجأ إليه الغبى كى يجعله عوضًا عما حُرِمَه من الذكاء والفكر.

١٣ ـ قد ينسى بعض الناس الذين طبعهم الإسراف (وبعضهم يسرف من غير شعور فى أمور لاحاجة إليها وإن توهم غير ذلك) أن الإسراف فى أمر من الأمور يقتضى الاقتصاد أو التقتير فى أمور أخرى ـ وهذا يذكرنى قول معاوية فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ:ـ ما رأيت إسرافًا قطّ إلاّ وإلى جنبه حق مُضيَّع.

١٤ ـ سوء الظن يكثر فى ظلام العقل كالخفافيش تكثر فى الظلام، وإذا عظم سوء الظن عَطَّل العمل وفصم الصلات وعكر العقل ودعا إلى الظلم والغيرة والتردد والحزن وإلى فقد الأصدقاء. وإذا كان سيئ الظن جبانًا هلوعًا يتملكه الذعر والرعب إذا فكر فيما يسىء به الظن فإن رعبه قد يدفعه إلى عدم التشبث ظنا أنه إذا تعجَّل بادر ما يخشاه قبل وقوعه. واتقاء ما يساء به الطن كأنه أمر حقيقى لاخطر منه، بل هو لازم إذا لم ينزله المرء فى نفسه منزلة اليقين ويتعجل بالحمق لمعاقبة من يسىء به الظن، وكذلك الذى يساء به الظن وهو برىء أو يخشى أن يساء به الظن ينبغى ألا يظهر فى ملامح وجهه وحركات جسمه أنه يخشى أن يساء به الظن وإلاَّ أسىء به الظن ريبة وإن كان بريئًا كما قال الطغرائى الشاعر (إن الهَيُوبَ مُريبُ) فى بيته الآتى:

تخفى بسالتُهُ مَطارح هَمِّهِ ومَرامهُ إن الهَيُوبَ مُريب

١٥ـ إخفاء سوء ظنك بصديقك عنه يزيد من سوء ظنك به، وقد تمحوه الصراحة وتبطل الوساوس التى تنمو بسبب سوء ظنك به، ولكن بعض الناس يكره أن تصارحه ويحقد عليك من أجلها، حتى ولو كانت صراحة بلباقة ولطف فلا يخلص لك بعد مصارحتك أبدًا ـ وهذا يذكرنى قول البحترى:

أدعُ الصاحب لا أعذله لايُسمَّى بِعقُوق فيُعَق

١٦ـ ينبغى لمن وهبه الله قدرة على الفكاهة والسخر، أن يتذكر دائمًا أن هذه القدرة تبعث الشك وسوء الظن به وبمقاصده حتى يحمل الناس كل ما يقول أو يعمل على محمل السخر بهم والاحتقار لهم وإن لم يكن يريد ذلك. وقد يذكر المرء قولاً بريئًا لاسخر فيه فيحمل الناس معناه على ما بدر منه فى أوقات أخرى من السخر (وهذا يذكرنى قول لورد تشسترفيلد: ينبغى لصاحب الفكاهة والسخر أن يتقلّدها مغمدة كما يتقلد السيف، لا مُصلِيًا لها، وأن يتخذها عدة للدفاع إذا لزم لا للاعتداء) وأبغض الفكاهة فى نظر لورد بيكون ما تناول بالتنادر والسخر الأمور الخليقة بالخشوع والإجلال.

١٧ ـ كل من كان فى نفسه شىء يدعو إلى احتقاره مُزَوَّدٌ بدافع نفسى يعمل للنجاة من ذلك الاحتقار بالحيلة أو المكر أو الشجاعة أو العمل العظيم الذى يدعو إلى الاعجاب أو بالظهور بين الناس إما بالفضل وإما بالشر كى يخيفهم بشره وينال الهيبة والخوف منهم إذا لم يستطع نيل الإعجاب بفضله. فكم من عاهة أو نقيصة فى حياة المرء حَثَّتْ على العظمة أو على الإجرام. وإذا كان صاحب النقيصة عاجزًا كان شديد الحسد.

١٨ ـ المظاهر المألوفة الصغيرة من مظاهر الفضل أجلب لرضا الناس ومدحهم من مظاهر الفضل العويصة العظيمة النادرة؛ لأن الحياة اليومية أحوج إلى الأولى كما أنها أحوج إلى النقود القليلة القيمة فى التعامل اليومى ـ ولأنها أقرب إلى فهم جمهور الناس وأقل هدفًا للحسد.

١٩ ـ أكثر الناس تغاضبًا الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمدلّلون الذين هم أشبه بهؤلاء. ومن أجل ذلك ينبغى أن يستحى العاقل من أن ينزل نفسه منزلتهم بالتغاضب ظنا أن الغضب من مظاهر العظمة، وهو ليس من مظاهر العظمة بل من مظاهر الجهل والمرض والضعف والعجز عن حكم النفس، فهو اعتراف بالنقص، لأن كل هذه المسببات من باب النقص وأشكاله.

٢٠ ـ بعض الناس عقلهم أعظم مما يُخيَّل للناس فيهم من العقل. وبعض الناس يخال فيهم من العقل أعظم من نصيبهم منه. فملامح الوجه قد لاتدل دلالة قاطعة على مقدار المرء من الفهم والتعقل، وقد يستر المرء نقص عقله بالوقار والحشمة، وبعض الناس له مهارة فى إلباس الأفكار التافهة لباس الحكمة، وبعض الناس يوهمون غيرهم بالصمت أنهم يعرفون أكثر مما يريدون أن يقولوا، وبعضهم يوهم ذلك بإشارة وجهه أو يده أو طرف من بدنه أو بالابتسام الماكر أو بالظهور بمظهر المتأمل المفكر وهو لايتأمل ولا يفكر. وهؤلاء وأمثالهم على قلة عقلهم يشتهرون بالفضل ـ (وهذا يذكرنى قول شيرير الناقد الفرنسى: إن بعض الناس كالمنازل الضيقة التى تكاد تكون لاعرض لها وطولها كله على الشارع الرئيسى البارز فيحسب الرائى أنها منازل كبيرة وهى صغيرة جدا).

٢١ ـ بعض الناس لإخفاء نقص عقولهم يتخذون وسائل أشبه بحيل التاجر المفلس الذى يريد أن يقنع الناس أنه غنى كى يجد من يقرضه مالاً ليتلافى أمر إفلاسه وكى يعود إلى الكسب وإلى الارتزاق. وهؤلاء إذا عَنَّ موضوع أظهروا عدم الاحتفال له وتهوين أمره أو السخر به بدل فحص فكرته والإدلاء برأى فيها.

٢٢ ـ قد يكون الرجل ذا إثرة محبا لنفسه، ومع ذلك يكون فى حاجة شديدة إلى صديق، فليست الحاجة إلى المصادقة والمودَّة من سلامة الطويَّة وطيب القلب، وإنما هى ضرورة كضرورة من يأخذ الدَّواء كى يجرى به المرارة فى جسمه ويُدرهَّا. وأمثال هذا إذا افتقدوا الجليس المصاحب كانوا كمن يأكلون قلوبهم ـ ولعلَّ هذا هو السبب فى غيظ ذوى الأثرة ممن ينقطع عن مجالسة الناس أو لعلَّه سبب من أسبابه ـ وبعض الناس لاتتم متعتهم بالسرور إلاَّ بإعلانه لصديق أو

جليس، ولايسهل تحملهم للشقاء إلاَّ بالشكوى لعشير أو جليس أو صديق ومكاشفته. وهذا يذكرنى قول الشاعر العربى:

ولابدَّ من شكوى إلى ذى مروءَة يواسيك أو ينسيك أو يتوجع

٢٣ ـ تزداد آراء المرء صحة ووضوحًا بالمحادثة؛ لأنه قد يتكلف بحثها ووضع حدّ لمعناها وأسبابها، فيزداد المرء دقة وحكمة بالمشافهة أكثر مما يزداد بالتفكير خاليًا بنفسه منفردًا. فهو بالمحادثة يشحذ ذهنه كما يشحذ السلاح على الحجر حتى ولو كان محدثه لايستطيع أن يجيد مبادلة الرأى ونقده، ويستثنى من ذلك الحديث الذى لا يراد به هذا الأمر بل تراد به الضجة وتعطيل الفكر والمهاترة.

٢٤ ـ اختلال الأمن أكثر مايكون بسبب الحاجة والفقر ولا يداوى ولا يكبح إلاّ بمداواتهما. وقد قال تاسيتوس المؤرخ الرومانى فى وصف أمثال هذه البيئة المختلة: بعض الناس لهم جرأة على عمل الشر، وبعض من ليست لهم جرأة على عمله يرغبون فى أن يعمل غيرهم الشرور أكثر من هؤلاء وأولئك الذين يسمحون بعمل الشر ولا يعينون ولا يدلون على من يعمله ولايحاولون منعهم. فإن رأيت أمة اجتمعت فيها هذه الطوائف الثلاثة واستفحل أمرها فأنذرها بالتدهور فى نظامها وحياتها التى تحياها، ولاسيما إذا انتهز الوجهاء والأعيان والأدباء والمفكرون فرصة امتعاض الجمهور من سوء حالهم كى يثيروهم بوسائل ظاهرة أو خفية لمآرب خاصة بهم. وإذا كثر فى مثل هذه الأمة الذين يسرفون فى الترف أكثر مما ينتجون وازداد فيها عدد المتعلمين الذين يعتمدون على مناصب الدولة ولا عماد لهم غيرها فهى أمة معرضة دائمًا للتدهور مهما غرَّت ظواهرها.

٢٥ ـ مظاهر الحزن قد تكون مثل صمامات الأمان، فالذى يحاول منعها إذا اشتد الحزن قد يكون حاله مثل حال الذى يجعل جروحه تدمى فى داخل جسمه بدل أن تدمى على ظاهره وعلى جلده فيعالجها، وهى إذا دميت فى داخل جسمه سببت التقيح والتسمم فى بدنه، وكذلك من يقهر أحاسيسه الشديدة كل القهر ولاينفس عنها بعض التنفيس بالعمل أو القول أو الكتابة وما شابه ذلك يكون كأنه تسمم بها.

٢٦ ـ إذا لم تجد النفس منفذًا إلى النجاح والتبريز فى الأمور العظيمة فلا تنتعش إلاَّ بالنجاح والتبريز فى الأمور الصغيرة، وقلما تنتعش وتطمئن إلى السكينة التامة الخالية من أى مظهر من مظاهر النجاح، فإنها حينئذ تنطوى على نفسها ويصيبها الملل والحزن إذا لم تجد ماتتلهى به مما يؤدى إلى النجاح والتبريز فى أى أمر من الأمور صغيرها وكبيرها.

٢٧ ـ أشد الناس أثرة وأنانية لا يتورعون من إحراق مدينة كى يقلوا بيضة، أى لايتورعون من تسبيب أشد الضرر من أجل منفعة تافهة، ومع ذلك لايغتر الناس كما يغترون بذوى الأثرة والأنانية، لأن مطالب أثرتهم والرغبة فى الفوز بها قد تدعوهم إلى ملاطفة الناس واسترضائهم، فيخال ذلك من سلامة طويتهم وطيب أنفسهم فيأنس إليهم الناس ويثقون بهم، وبهذا الائتناس بهم وبتلك الثقة ينالون ما تتطلبه أثرتهم إلاَّ إذا كان صاحب الأثرة أحمق لايعرف كيف يستدنى مأربها بملاطفة الناس وإظهار غير ما يبطن.

٢٨ ـ خطرات النفوس الخفية تكون حسب ميول الناس ونزعاتهم، أما آراؤهم فحسب ما تعلموا، ولكن أعمال الناس حسب العادات التى تعودوها؛ ومن أجل ذلك لايصح أن يخدع المرء بالناس وأن يخلط بين هذه الأمور الثلاثة كما لايصح أن يعتمد على طبع واحد من طباع نفس إنسان يعرفه؛ ففى النفوس طباع متناقضة، ولا يصح أن يعتمد كل الاعتماد على آرائه وأقواله وأحاديثه إلاَّ إذا صدقتها ووافقتها عاداته وإلاَّ كان عمله ضد رأيه فى بعض الأحايين. فكثيرًا ما تسمع الرجل يفصح عن رأى أو عقيدة ويعطى المواثيق على أن يعمل وفقها ثمَّ لايفعل، بل يفعل ما تقتضيه عاداته. فكأنما الإنسان آلة مسيَّرة يديرها لولب العادة كما تدار الآلة فى المصنع.

٢٩ ـ للإنسان مزايا ظاهرة تجلب المدح ولا ينال صاحبها غير المدح وقد يكون ممدوحًا خائبًا فكأنه مدحٌ عقيم، وللإنسان مزايا أقل ظهورًا من نالها جلبت له السعادة وأعانه الحظ ومثْل هذا الإنسان الذى نالها كأنما محركات عقله ونفسه متفقة ومحركات الحظوظ كما تتفق عجلات الساعة فى سيرها أو عجلات الآلة. ومثل هذا الرجل قلما يخطِّئه الناس أو يذمونه أو يسببون له الخيبة، ومثل هذا

لايشترط فيه تمام الفهم وكمال الفضل، بل قد يكون نقصه فيهما معينًا له على النجاح، وبعكس ذلك تجد أناسًا لايستطيعون تجنب مؤاخذة الناس ولومهم وانتقادهم مهما أجادوا وأحسنوا فى القول والعمل.

٣٠ ـ المتملق الساذج يمدح كل إنسان بكلام يعده لكل من يريد مدحه وهو على وتيرة واحدة والمتملق الماهر يمدح كل إنسان بما يود ذلك الإنسان أن يُمدَح به وبما يمدحُ به نفسه. والشرير هو الذى يمدح إنسانًا بما يضره ويؤذيه. وإذا مدحت من كان فى مثل فضلك أوجبتَ لنفسك المدح، وإذا لم تمدح من هو أكثر منك فضلاً أنكر الناس فضلك بالقياس.

٣١ ـ بعض من يود معرفة أسرار الناس يبادرهم بالحديث بالأمر الذى يريده على غفلة منهم واستئناس كمن ينادى إنسانًا أخفى وغيرَّ اسمه فيناديه باسمه على حين غفلة منه أو يعرِّض له بما يريد معرفته ويتأمل وجهه خلسة. وقد يصلح رأى هذا الباحث إلا إذا كان جليسه هيوبًا فيصدق فيه قول الطغرائى (إنَّ الهيوب مريب).

٣٢ ـ ينبغى للقاضى أن يذكر دائمًا أن الشرائع والقوانين لم تنشأ كى تكون أحبولة صيد وفخاخًا وشباكًا يصاد بها الناس كيفما كانوا وبأية طريقة.

* * *

نظرات جوناثان سويفت[1]

- ١٣ -

كان سويفت إنجليزيا ولد فى أرلندة وعاش بها فى صباه ثم عاد إليها فى أواخر أيامه ومات بها. وقد كان فقيراً فأكسبه الفقر غيظًا وشعوراً بالنقص كان يخفيه بالكبرياء عندما نبغ وعاشر العظماء والوزراء. وقد عاش مدة فى إنجلترا أشبه بكاتب للسير وليام تمبل السياسى الإنجليزى. وقد استشهد ثاكرى فى رسالته عنه برسائل سويفت التى تذلل فيها للسير وليام وأظهر أن ضرورة هذا التذلل كانت تحز فى نفسه وقلبه وتزيد من شعوره بالنقص. ولكن ما كولى فى رسالته عن السير وليام تمبل وصف كيف أن سويفت قد استفاد علمًا من مكتبة متبوعه كما استفاد خبرة عملية من معاشرته رجلاً تقلب فى مناصب مختلفة واكتسب خبرة بالحياة والناس. وقارن ماكولى بين الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى والكاتب الشهير وبين سويفت فقال: إن آراء الأول مكتسبة من الكتب، أما آراء سويفت فهى مؤسسة على الخبرة بالحياة. وقد خدم سويفت وزراء حزب المحافظين أولاً بقلمه، وكان يأمل أن ينصَّب أسقفًا فى الكنيسة ولكن الملكة رفضت ذلك؛ لأنه فى بعض كتبه يسخر برجال الدين وطوائف الكنيسة وينقد حزازاتهم واختلافهم فى أمور تافهة. وأشهر مؤلفات سويفت كتاب أسفار جاليفار يطالعه الصغار لغرابة قصته والكبار لما فيه من نقد لحياة الناس. وقد خولط فى عقله فى أواخر أيامه، وقلما سلم منه صديق لحدة طبعه. وبالرغم من تلك الحدة أحبته امرأتان: وهما التى رمز للأولى باسم ستيلا، وللثانية باسم فانيسا. وقد قال ثاكرى: إن انهيار عقله فى آخر حياته كان مثل انهيار دولة

(١) المقتطف: مارس سنة ١٩٤٩.

كبيرة، ويقول سير والترسكوت: إن فانيسا ماتت غما بسبب زواجه سرا من ستيلا، ولو أنه من المعروف أن فانيسا ماتت من السل، وقال ناقد: إن سخر فولتير كان مثل وخز سلاح المبارز؛ أما وخز سخر سويفت فكان أشبه بوقع فأس القاتل. وقد اتخذ من سخر عبقريته وشدّته فى القول وسلاطة لسانه سلاحًا فى السياسة لم يسبق له مثيل، فجعل المقالة السياسية مقالة أدبية مرهوبة؛ لأنه أكسبها رائع الأسلوب، كما أكسبها الخيال والأدب والفكر والسخر والشدة. ولكن شدة سخره كما تظهر فى المقالات السياسية كمقالات دريبر التى يقترح فيها على سبيل السخر بخصومه من الوزراء طهى أطفال الأرلنديين وأكلهم ويَفْتَنّ فى وصف طهيهم. كذلك تظهر شدة سخره فى وصف ياهو المخلوق القذر فى كتاب أسفار جاليفار وقد رمز به إلى الإنسان وفى مواضع أخرى كثيرة. وقد قارن فولتير بين رابليه الساخر الفرنسى وبين سويفت فقال: إن كليهما ذو بصيرة وفطنة، ولكن رابليه كان يحب الحياة والناس، أما سويفت فكان يكره الحياة ويحتقر الناس.

وحب رابليه للحياة سواء أكان حبا للذات الجسم أم كان حبا للذات الفكر، أمر مشهور تفيض به كتبه. وكان يحارب به الرهبنة فى المسيحية ونظرها إلى الحياة والفكر. ويمتاز سويفت بأنك لا تجد حرفًا أو كلمة يصح حذفها فى قوله. أما رابليه فقد كان أسلوبه غزير المترادفات وأشباهها فكأنه فى غزارته السيل المتدفق أو النمو النباتى الغزير. وكما أن كليهما قد يعوق السير فكذلك قد يعوق إتمام قراءة رابيله ما به من غزارة الكلام وكثرة الإشارات إلى أمور غامضة كانت معروفة فى ذلك العهد البعيد. إلاّ أن قراءة كتبه تحبب الحياة وتدعو إلى الأمل وإلى الرغبة فيها. أما كتب سويفت فقد تدعو إلى احتقار البشرية واليأس من الناس.

ولكن هذا لا يقلل من رصانة تفكيره كما يتضح فى النظرات الآتية التى نوردها مع التعقيب عليها.

١ ـ قد يكثر الناس من الأعذار والأسباب حتى ينتحلوا الزائفة منها فيضيفونها إلى الوجيهة؛ ظنا منهم أن كثرتها تزيد الراجحة الوجيهة رجاحة ووجاهة. وهم قلما يفطنون إلى أن زيف الزائفة ينتقص من رجاحة الراجحة، ويدعو إلى الشك

فيها، وهذا أمر شائع يضيع الناس به حجتهم ويبطلون حقهم، وإن كانوا على حق، وكذلك الضعيفة من الحجج تضعف ما أضيفت إليه من الحجج القوية، ويحسبون أن كثرتها تقنع المفكر فيها، ولكنه إذا فطن إلى ضعف الضعيفة ربما خالجه الشك فى غيرها. وقد يحسب الناس قوَّة الأخيرة من بلاغة صاحبها أو مكره واحتياله، فإذا وثق السامع من بطلان بعض الأسباب أو ضعفها أبى الاقتناع كل الاقتناع بالسليمة، وتحرز من قبولها كل التحرز. وهذا مثل أن يتضح للسامع كذب بعض القول، فيشك فيه كله أو يرفضه أو يحكم ببطلان الصدق لجناية الكذب الذى أضيف إليه.

٢ ـ مهما عظمت المنافع التى استفادها المرء منك فإنه قد يحقد عليك إذا كانت له شهوة ظلم أو حقد أو بغض لإنسان ولم تُعِنْهُ على ظلم ذلك الإنسان أو على إيذائه أو انتقاصه ولم تساعده على التشفِّى منه، فإنه يعدك ممالئاً له وإن لم تكن ممالئاً، ويراك خاذلاً لنفسه كأنك خذلته فى الخير والعدل. فإن الشهوات لاتنصف ولا تتذكر خيرًا استفاده منك صاحبها ولا تأبه لما يفرضه عليك العدل من الامتناع عن ظلم الناس وإيذائهم. فكأن ما أسديت إليه كان نفعًا زائفًا وأمرًا مدلسًا ـ ويدهش الناس لو فطنوا إلى حدٍّ ينقادون إلى مثل هذا الإغراء بالشر والإلحاح فى الحث عليه، وهم ينقادون إمَّا خوفًا أو طمعًا أو كسلاً أو استهواءً أو شهوةً أو جهلاً أو ماشابه ذلك. وبعضهم يحسب الانقياد إلى الشر ضرورة لامناص منها مع هذا الإلحاح وإن كرهها أو ادَّعى لدى نفسه أنه يكرهها أو كان يهاب عاقبتها، وربما ينقاد إليها وهو لايسوِّغها فقنع نفسه بالباطل، إنه إنما انقاد إلى ضرورة من ضرورات الحياة التى لامناص منها، وربما غالط نفسه وعدَّ انقياده إلى الإلحاح على عمل الشر والأذى من ضرورات الحياة التى لامخرج منها ولامناص كى يطلق لنفسه العنان لإشباع نهمتها الغريزية فى عمل الشر ولتسترسل فيما هو حبيب إليها منه. والإنسان قلما يتجنى أو يعمل الشر بإلحاح مغر أو بغير إغراء وإلحاح إلاَّ وهو يعد لنفسه الأعذار كى يستريح إمَّا من تأنيب الناس وإما من وخز الضمير.

٣ ـ أكثر الناس عندهم من الإيمان والدين القدر الذى يغريهم بكره الناس لمخالفتهم إياهم فى أمر من الأمور، وليس عندهم القدر الأعظم من الإيمان

الذى يغريهم بحب الناس ـ فترى الناس يضطهد بعضهم بعضًا، وقد يكون هذا الاضطهاد خشية عدوى آرائهم وأعمالهم، أو قد يدعون أنهم يضطهدونهم لأنهم يحبون لهم الخير ويخشون عليهم الشر أو الأذى. وهذا يذكرنا بقصة (العذاب بالأمل) لمؤلفها فيلييرده ليل آدم الفرنسى. وفيها أحد رجال الكنيسة من أعوان محكمة التفتيش يعذب الناس وتكاد تذوب نفسه إشفاقًا عليهم ورحمة لهم، إذ لم يعذبهم كى يطهرهم بالعذاب، ولم يكتف بالعذاب المادى بل كان يعذب السجين بالأمل، فيترك له باب سجنه غير موصد كى يطمعه فى الهرب، فإذا أوشك الرجل أن يهرب وينجو من العذاب دلف إليه واعتنقه واحتضنه رحمة له وعاتبه برفق لرغبته فى الهرب من التطيهر بالعذاب والألم وقلبه يكاد يذوب إشفاقًا عليه من تلك النجاة. وهذا يذكرنى قول الشاعر:

فكنتِ كذبَّاح العصافير جاهدًا وعيناه من وجد عليهنَّ تهمل

وهذه القسوة الموصوفة فى القصة قسوة ممزوجة بهستريا الرحمة، ولكن أكثر النفوس فى قسوتها فى الحياة لاتحتاج إلى مزيج من هستريا الرحمة الكاذبة.

٤ ـ كثيرًا ما يخطئ ويخيب ذوو الفكر فى أمور الحياة العامة حيث يصيب النجاح من قل عقله وفكره فإنَّ شدَّة تصورُّ ذوى الفكر وإدراكهم جوانب الأمور واحتمال مايكون، وحدة ذهنهم فى بحث تفاصيل الأمر صفات قد تدعو إلى الحيرة والارتباك والتوانى وإلى الشطط عن القصد فى أثناء تلمسهم جوانب الفكر فى الأمر، بينما يمضى الرجل الذى لايفكر كثيرًا إلى مايكلَّف عمله فيعمله عملاً متقنًا ويصل إليه من أسهل الطرق وأقربها وأكثرها وُرَّادًا. وإنما مَثَل ذلك مثل المدية إذا شحذت شحذًا شديدًا وأردت أن تقطع بها أطراف أوراق كتاب فإنها ربما حادت وجنحت من حدَّتها فلا تقطع أوراق الكتاب قطعًا منتظمًا بل قد تتلفها، بينما لا تحيد المدية التى هى أقل منها شحذًا. ولعلَّ سَعَة الفكر تدعو إلى أن يعد صاحبها من الممكن عمليا ماهو من المحال. ولقد رأينا نابليون بونابرت ينجح فى تنظيم إدارة فرنسا وفى تنظيم معاركه، بينما كان خياله وفكره يدعوانه أحيانًا إلى طلب المحال، ولقد عرفت من الشبان الأذكياء من أصابوا نجاحًا كبيرًا فى الحياة

وكان يتنازعهم العاملان عامل الإرادة الواقعية العملية وعامل الخيال والفكر اللذين كانا يؤديّان إلى فشلهم لو استسلموا إليهما كل الاستسلام.

٥ ـ يلوم الناس الإنسان لأنه لايعرف حدود مقدرته ومقدار عجزه ونقصه، ولكنهم قلما يعترفون أنه قد يجهل قدرته وكفايته وملكات نفسه، وقد يبخسها وينتقص نصيب نفسه منها؛ لأنها تكون كامنة خافية عنه لاتظهرها إلاَّ الحوادث المواتيه المناسبة، وإنما اختفاؤها عنه كاختفاء منجم الذهب ومعدنه فى بطن الأرض، فإنه يخفى على من هم على سطح الأرض. ومثل هذا الإنسان الذى يخفى عنه مقدار ملكاته كأنما يعيش على سطح نفسه كما يعيش الغافلون عن المعدن الذى فى بطن الأرض ممن هم على سطحها ـ وقد يستنبط هذه الملكات الإيحاءُ أو الحب أو المنافسة أو الضرورة، والضرورة التى تستنبط الحيلة والقدرة والملكة فى بعض النفوس إذا صحبها مايدعو إلى الارتباك أو كان فى جهاز جسم صاحبها ما يدعو إلى الحيرة، أخلَّ بملكاته ولم ينتفع بها كل الانتفاع، كالذى لاتظهر كنوز نفسه إلاَّ إذا ابتعد عن الضوضاء. فإن ضوضاءَ الحياة قد تشردها كما يشرد لب المرء وكما تشرد أفكاره إذا سمع جلبة وأصواتًا صاخبة. ولكن بعض الناس لاتظهر كل مقدرته وملكاته وكنوز نفسه إلا إذا خاض غمار الحياة وعالج الناس وعشرتهم واحتكت نفسه بالنفوس كما يحتك حجر الصوان بالصوان. وقد يفاجأ المرء ببروز ملكاته وقدرته كما يفاجأ غيره مباغتة، وقد كان لايظن أن عنده تلك القدرة كما كان الناس لايرونها فى نفسه وبغتات النفوس متنوعة.

٦ ـ دعانا بعض الفلاسفة إلى نبذ أكثر رغباتنا حتى إذا بلغت أقل حد مستطاع أمكننا أن نحصل عليها من غير مشقة كبيرة ومن غير أن نشقى فى الحياة. وهذه الدعوة مثل دعوة من هو فى حاجة إلى النعل أن يقطع رجليه كى يستغنى عن النعل فلا يشقى بطلبه ولكن ما تقدم إلاَّ بالطلب كما لايتقدم من هو فى حاجة إلى النعل إلاَّ بقدميه. ومن قديم الزمن ما شحذ ذهن الإنسان ونما عقله ومرن بدنه إلا لأنه خالف هذه الدعوة إلى انتقاص الرغبات والحاجات واسْتَنَّ لنفسه سُنَّةَ الإقبال على طلب الدنيا.

٧ ـ لو أن إنسانًا كتب جميع آرائه فى أمور الحياة المختلفة منذ صغره إلى أن صار شيخًا لوجد اختلافًا وتناقضًا كبيرًا فى آرائه فى كل أمر من الأمور فى مراحل العمر المختلفة، ومع ذلك فإن الناس كثيرًا ما يلومون المرء لأنه غيَّر وبدَّل فى آرائه، وهم لايفطنون إلى أنهم يغيرون ثيابهم وأزياءهم ومطالبهم. ولو أن إنسانًا لم يتغير رأيه فى الأمور من عهد طفولته إلى مماته لَدَلَّ ذلك على أن عقله لم يكبر وأنه أشبه بالحفريات المتحجرة وإن كانت هذه يصيبها التغير أيضاً ـ ولعل السبب فى ذلك أن الناس يخلطون بين تغير النفاق الذى سببه الأهواء وتغير النمو، وهم يميلون إلى سوء الظن فينسبون كل تغير إلى النفاق الذى يجعل المرء شبيهًا بالآلة التى توضع فى مَهَبِّ الرياح فتعرف بها الجهة التى تهب منها. فتغير الرأى قد يكون تَهَدِّيًا إلى الصواب ونموا فى العقل وقد يكون طيشًا وعبثًا فيمن لارأى له. وقد يكون مكرًا واحتيالاً للكسب. وبالرغم من أن الناس يلومون من غَيَّر رأيه فإنهم إذا وجدوا أَرَبًا أو نيلاً منه أو قدحًا فيه تناسوا رأيه الجديد وألزموه رأيه القديم وهو يتبرأ منه.

٨ ـ عرفت أناسًا كانوا ذوى مواهب كبيرة نفعت غيرهم ولم تفدهم فَهُمْ كساعة الظل التى كان الناس يضعونها أمام بيوتهم فينتفع بها المارَّة ويعرفون بها مرور الزمن ولا ينتفع بها أهل البيوت. الذين نَصَبُوها. وتلك المواهب النفيسة قد لاتنفع أهلها فحسب، بل قد تضرهم؛ فإن الفائدة المرجوَّة للمرء فى الحياة لاتكون على قدر مواهبه وإنما تكون على قدر مايستطيع الاحتيال له من المكاسب والمزايا. فإذا لم تسعفها تلك المواهب على ذلك الاحتيال أخطأت تلك المزايا ولو أن نفوسًا أخرى غير نفس ذلك الإنسان لم تنل ما تريد مما يعدل مواهبها ويناسبها ويوازنها ما بالت نفسه، وقلما تسخَّطت أو حاولت عبثًا أن تغير سنة الحياة إلاَّ فى حالتها.

٩ ـ رغبة بعض المفكرين فى إبطال مطامح الناس التافهة ورغباتهم التى لاقيمة لها فى ذاتها، وإنما تكتسب قيمتها من تكالب الناس وتهالكهم عليها، خطة تدل على نقص فى الحكمة والخبرة بأمور الحياة؛ إذ أن كثيرًا من أمثال تلك المطامح إذا جعلت جزاءً للعامل ومكافأة للمُجِدِّ، ترغبه فى الكدح والعمل وفى ارتياد

سبل الفضائل والفضل. أما أن يقال إن الفضائل ينبغى أن تطلب لمحبتها والرغبة فيها لا لجزاء عليها فنظرة حسنة، ولكن طباع الناس فى الحياة تخالفها وتتطلب جزاء عليها، ولامناص مما تتطلبه الحياة، فالشهوة والرتب والأوسمة وما شابهها أمور لاقيمة لها فى نفسها، ولكن قيمتها فيما تؤدى إليه من العمل والجد. ولقد ترى الرجل الفقير الجاهل يكدح طول حياته ويتخلق بخصال الحمد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ كى ينال رثاءً حسنًا إذا مات، وكى يكتب بعضه على قبره ـ وهذا يذكرنا كلمة لنابليون بونابرت فى هذا المعنى وفى فائدة الرتب والأوسمة عندما ليم على إحيائها بعد أن محتها الثورة الفرنسية. ولكن سويفت بالرغم من فطنته إلى أنها وأمثالها مدعاة إلى العمل ومن محركات الحياة فإنه يسخر بالمتهالكين عليها فى كتاب أسفار جاليفار. إذا اتخذوا الائتمار والكيد والتملق وسائل إليها وأمعنوا فى عمل الشر بسببها.

١٠ ـ بالرغم من أنه لم يكن بين الناس من استطاع أن يجعل آراء الناس ذات طول وعرض ونظام ومقصد واحد فإن كل مفكر يود أن يحمل الناس على اعتناق آرائه أو يأمل كما أمل أبيقور أن يصير الناس يومًا إلى زمن مقبل تتشابه فيه الآراء والأنظمة بعد أن يُشَذِّب بعضها بعضًا كما يشذَّب الحَصَا باحتكاكه، فتتحول الحصوة الثقيلة والخفيفة والمستديرة والمستطيلة إلى شكل واحد ووزن واحد أو كما أمل كارتيزيوس أن تجذب فلسفته الآراء الفلسفية المتناقضة إليها فتدور حولها كما تجذب الكواكب غيرها من الكواكب. ومن هذا السبب نشأ اضطهاد الفكر للفكر. فلو تقصينا التاريخ لوجدنا كل طائفة تدعو إلى حرية الفكر مادامت تضطهدها غيرها، فإذا تخلصت من الاضطهاد وصارت لها السيطرة حاولت أن تقيد أفكار غيرها؛ ومن أجل ذلك كانت محاولات تحرير الفكر مصحوبة بالرغبة فى تقييده أو يعقبها اضطهاد من نوع آخر ـ وقد تَتَبَّعَ (فان لون) فى كتابه (تحرير الإنسانية) خطوات هذا الاضطهاد من عهد الكهوف إلى عهد الجيلوتين. ولو كان الفكر غير باعث على العمل ربما استطاعت الفئة الغالبة إهماله. وما صنعه (فان لون) صنعه فى صيغة أخرى برتران ده جوفنيل فى كتاب (القوة) وقد قال جوفنيل: إن كل من يستبد بالقوَّة إنما يفعل ذلك بدعوى أنه

ينوب عن الشعب. والواقع ـ كما أوضح ـ أن فى استسلام الشعب ما قد يسوغ هذا القول، وإنما كان ينذر الشعوب من عواقب المستقبل. ومن الغريب أن جوفنيل ـ وكان مندوب فرنسا فى سوريا ـ يقول فى القوَّة قولاً قاله قبله شيلى الشاعر الإنجليزى فى صيغة أخرى، فقد قال فى بعض قصائده (إن القوة كالوباء الذى يتفشى فيصيب كل مايقربه والخنوع لها عدو للذكاء والفضيلة والحرية والحق ويحيل الناس أرقاء ويجعل أجسامهم آلات مسيرة) ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يكون فى غنى عن القوَّة أو أن يقيدها؟!

فالثورة الفرنسية التى كانت ثورة على القوَّة وأعطت فى أول الأمر كل مدينة أو إقليم حق انتخاب حكامه كلهم، حتى ضعفت سلطة الوزراء فضعفت الدولة بسبب ذلك، مالبثت أن صارت فى عهد مجلس أو لجنة السلامة مركزية شبه توتا ليتارية. وبالرغم من أن جان جاك روسو فى كتابه (العقد الاجتماعى) كان بشير الحريات الفردية فإن به نزعة توتاليتارية تظهر فى أمور كثيرة منها: تقديس الدولة، والقول بانعدام حق كل إرادة فى الإرادة العامة. ومنها: إباحة حكم الحاكم الدكتاتورى الفرد الذى ينوب عن الديموقراطية فى بعض الأحايين. ومنها: القول بنفى أو قهر من له إرادة لم تنعدم فى الإرادة العامة. ولما كانت الإرادة العامة كالديموقراطية أمرًا تقريبيًّا فهى إرادة الكثرة أو ما يُسَمَّى الكثرة، وإن كانت كثرة ظاهرية. وبعض اليعقوبيين الديمقراطيين قالوا ـ عند ما كانوا قلة ـ إنهم كثرة؛ لأنهم يمثلون مرافق الشعب الحقيقية وإرادة أجيال الشعب فى العصور الطويلة المقبلة عندما يتعلم كل آحاده أن يعدم إرادته فى الإرادة العامة. فالعالم لاتزال تتنازع فيه القوَّة الطوائفُ والأحزاب المختلفة وكلٌّ يريد أن يسود رأيه وأن يقهر رأى غيره. ومن الطريف أن نابليون بونابرت وقف يومًا على قبر جان جاك روسو وقال ـ وقد كان فى صغره يردد آراءه ـ لقد كان من الصالح العام لو أن هذا الرجل لم يولد. فقال له جيراردين إن آراءَه أفسحت لك الطريق، يعنى بأثرها فى الثورة الفرنسية، فقال نابليون: ربما كان من الصالح العام لوأن كلينا لم يولد.

١١ ـ ربما خُيِّل لنا أن الكلام المواتى الكثير من المحدث أو الخطيب دليل على غزارة مادته من اللغة والرأى. وهو كثيراً مايكون دليلاً على أن مادته محدودة فيستطيع اختيار مايختار من الكلام من غير مشقة. فإذا غزرت مادة الإنسان من لغة أو علم أو رأى قد يطول تردُّده قبل الكلام ـ ولعلَّ فى هذا بعض العزاء لذوى العى؛ إذ غاية ماتصل إليه غزارة المادَّة أن يكون المرء أشبه بالعَيِىّ فى تردُّده قبل الكلام من وفرة المادة، كما قال الشاعر:

تكاثرت الظباء على خراشٍ فلا يدرى خراش مايصيد

وكثرة الكلام مع قلة المادَّة أمر معروف. ولعلَّ أفكه مثل لهذه الثرثرة وإن كانت ثرثرة كُسِيَت من بلاغة الأديب مؤلفها كتاب (محاضرات الكِلَّة) أو الناموسية والسرير، وهى محاضرات تعظ فيها مسز كودل زوجها وتؤنبه بعد ذهابهما إلى الفراش، وهى من تأليف دوجلاس جيرولد. وقلة المادَّة لاتعوق تأثير الكلام الكثير فى السامع، فإن الكلام يؤثر بترداده كما هو مشاهد فى السياسة وفى غيرها من مظاهر الحياة المختلفة. بل لعلَّ قلة المادة تدعو إلى أن يفضله كثير من الناس لقلة العنت فى فهم مادته القليلة.

١٢ ـ قد يتحدث الرجل صاحب الفطنة والذكاء فيخالط بعض كلامه شىءٌ من الفكاهة العامة البريئة فيحسبها السامع انتقاصًا له، وهى ليست انتقاصًا وإنما يفعل ذلك إذ يقول فى نفسه: إن هذا الرجل المفكر لابدَّ أن يكون وراء كلامه معنى مُسْتَتِرٌ غير ظاهر معناه ـ ومثل هذا الشك غير مقصور على المحدَّث الفَطِن أو من كان من أهل الفكر من الناس وإن كان يساء الظن بهم أكثر من غيرهم. فإن السامع إذا صادف كلامُ القائل صفةً يخشى أن يظنها الناس فى نفسه عد كلامه تعريضًا به، وربما تسرَّع بالإساءَة إلى قائلها، ومن أجل ذلك يُفرَض على مؤلفى القصص أن يقولوا إنهم لايعنون أحدًا بأناس قصصهم وإنهم من صنع الخيال. والواقع هو أن صاحب الفن يستمد من الأمور المشاهدة العامة مادَّة لفنه فيجعلها فن عاما، ولكن الناس كثيراً مايحيلون الفن العام إلى شخصيات معينة، وذلك

فى قول المفكر أو القصصى أو الشاعر. وأكثر هذه الإحالة ترجع إلى العقد النفسية وإحساس الناس بصدق قول فرويد فى كتاب (العلل النفسية) إن كل نفس إنسانية تجمع فى وعيها الباطن ونزعاته وصفاته الكامنة كل ماهو إنسانى فى جميع النفوس، بل كل ماهو حيوانى فى الحيوانات كلها، فيجعلون كل مافى الوعى حقيقة كائنة فى الحياة متى أرادوا. وانتقالهم بالفن أو الفكر من التعميم إلى التخصيص يكون بالرغم من ميل الناس إذا كان لهم أرب أو شهوة إلى التعميم فى أحكامهم المخطئة. كتعميمهم فى الحكم على الأمم أو الأحزاب أو الطوائف الكبيرة.

١٣ ـ فى أثناء طلب أمر من الأمور ومحاولة نيله والسعى والعمل له يفكر المرء فى محاسنه وأطايبه ومسراته وفضائله، فإذا ناله بدأ يفكر فى أوجه النقص فيه وفيما قد يكون فيه من المساوئ والعيوب، وإنما رُكِّبَتْ النفس على هذا الوجه وجبلت على هذا الطبع كى تستأنف مطالب الحياة وكى تطمع فى المزيد من محاسن الأمور فتعمل وتكد، وربما بخست الأمر الذى نالته كى تستطيع تحقيق هذه السنة الحيوية التى هى قوام الحياة.

١٤ ـ إذا هاج البحر ورأى أهل سفينة أن تُخَفَّفَ أحمالها وأثقالها كى تنجو وينجوا من الغرق بأن يقذفوا بعض أحمالها فى البحر، ربما حاول كل منهم أن يخفى متاعه ويعظ غيره كى يلقى متاعه فى البحر، وهذا مثل الذين يفضلون نفع أنفسهم على نفع الجماعة ونجاتها، فتضيع أنفسهم وتضيع الجماعة التى هم منها. وهذا التواكل يكثر عادة فى الأمم التى فقد آحادها الثقة بعدل حكومات بائدة وحكومة كائنة.

١٥ ـ إذا أراد الإنسان أن يتسلق ويعلو فلابد أن يتسلق كما تفعل القِرَدة على قدميه ورجليه. والطمع فى مناصب الجاه والسلطة قد يتطلب من المرء ماهو شبيه بالزحف على اليدين والرجلين ويعنى التقرب بوسائل التملق والخنوع ومعاونة من يرجى نفعه على شهوات غضبه أو حسده أو محاباته إلى آخر هذه الأمور، فقد شبهها بالزحف على القدمين واليدين أو بالتسلق بهما كما تفعل القرود.

١٦ ـ السبب فى خيبة كثير من الأزواج أن نساءهم بدل أن يتخذن من الزواج أقفاصًا لأزواجهن كأقفاص العصافير المُدَلَّلة البيتية التى تزيَّن أقفاصها كى تأنس إليها، يتخذن من الزواج ما يراه الرجال أشبه بالفخاج والشباك التى تصاد بها الحيوانات.

١٧ ـ كثيراً ما يذكر أهل التعاسة حكم الدهر ومشيئة القدر الغالبة الناقذة. أما السعداء فقلما يذكرون هذه الأمور، ولاسيما الذين يثقون أن الجاه والثروة والسعادة لن تزول عنهم؛ إذ إن هؤلاء، ينسون حتى أثر الأقدار فى توزيع الصحة والمرض والذكاء والغباوة والأحوال المساعدة للنجاح. وهذا يذكرنا قصة رجل أصاب غنيمة من مال كثير اختلسه من غير تعب، فكان إذا طلب منه إنسانٌ صَدَقَةً يقف ويلقى عليه محاضرة فى فوائد الاجتهاد والجد فى العمل، ويقول له: لو كنت اجتهدت لصرت مثلى.

١٨ ـ كثيراً ما يعلل المرءُ نفسه بأن العصور المقبلة ستقبل على ما انصرف عنه أهل عصره، وستشغل بما كان أهل دهره عنه فى شغل. فينصفون عمله أو قوله كما أراد. وينسى أن أهل العصور المقبلة تَسْتَجِدُّ لهمْ فيها أقوال وأمورٌ هم بها فى شغل. وهذا الوهم هو مما يزيد إقبال الناس على العمل والفكر والتضحية وإن كان قلما يتحقق، ولكنه من سنة الحياة التى تزيد ثمرة أعمال الناس حتى بالوهم.

* * *

نظرات جورج أليوت سويفت[1]

ـ ١٤ ـ

جورج أليوت هو الاسم الذى اشتهرت به مارى إيفانز الكاتبة الإنجليزية الشهيرة، وقد اشتهر من الكاتبات الأوروبيات كثيرات، وربما كانت لبعضهنَّ شهرة عالمية أكثر من شهرتها، ولكن الفحص والتمحيص يدل على أنها من غير شك أعمق بصيرة وأغزر فكرًا وأرجح رأيًا وأعظم خيالاً من مدام ده سافينى، أو مدام ده ستايل، أو جورج ساند، أو جين أوستن أو غيرهنَّ. ويمكن تقسيم مؤلفاتها الهامة إلى أربعة أقسام: القسم الأول يشمل القصص التى تشرح فيها صفات نفوس من حولها من الناس، وهذه الكتب مثل أموس بارتون، وآدام بيد، وسيلاس مارنر وغيرها هى أكثر كتبها رواجًا بين القراء الإنجليز؛ لأنَّ موضوع كل منها أقرب إلى أذهانهم، ولأنها أسهل أسلوبًا. والقسم الثانى من مؤلفاتها يشمل قصة رومولا التاريخية التى تصف فيها عهد إحياء العلوم فى إيطاليا بمحامده ومكارهه. والقصة التاريخية أشق وأصعب فى تأليفها؛ لأنها تحتاج إلى دراسة ذلك العهد ونقد ما يذكر عنه وتصوره ببصيرة نافذة. وقصة (رومولا) من القصص التاريخية الكبيرة التى يصح أن تحتل مكانًا ما بين ازموند لثاكرى، وسان أنطوان وسلامبو لفلوبير وتاييس، والآلهة ظمأى لأناتول فرانس وبعض القصص التاريخية الشهيرة الأخرى. والقسم الثالث من مؤلفاتها قصة مدلمارش، وقصة دانيال ديروانداء، وهى لاتقل فيهما بصيرةً، ولكنها تبعد عن النفوس المألوفة حولها التى وصفتها فى القسم الأول، كما أن عادة الاسترسال فى الفكر تغلب عليها ويغلب عليها

(١) المقتطف : إبريل سنة ١٩٤٩.

الأسلوب الفكرى. والقسم الرابع من مؤلفاتها رسائل ثيوفراست دعتها باسم فيلسوف إغريقى قديم، وهى وصف لخصائص أخلاق الناس على نمط لابروبير. وهذه الكاتبة ـ فضلاً عن أنها درست ثقافات الأمم المختلفة كما يتضح من قراءة مؤلفاتها ـ فإنها وارثة بصيرة شكسبير وهنرى فيلدنج القصصى الإنجليزى على اختلاف ما بينها وبينهما. وكثيرًا ما تذكرنا مقدمات فصول توم جونز لهنرى فيلدنج ـ وهى على شكل رسائل وبحوث فى النفوس بآثار هذه الكاتبة، ويصح جمع كلمات عديدة من مؤلفاتها لاتقل عن كلمات عظماء المفكرين من الرجال.

كما يتضح من نظراتها الآتية:

١ ـ إذا أساء إلينا إنسان ثم خاب فى أمر لاصلة له بإساءَته أو خاب فى أمور حياته عامة أحسسنا كأن خيبته فى أمور حياته بسبب إساءته إلينا. كأن نظام الحياة لايستقيم مادام قد أساء إلينا إلاَّ بخيبته، وكأنَّ تلك الخيبة نتيجة طبيعية للإساءَة إلينا. وهذا الاحساس يشتدّ أعظم ما يشتدّ فى نفوس ذوى الأثَرَة والجهل. ولعلَّ سببه أن المساء إليه من غيظه يريد الانتقام، فيتخيل أنه قد أصابت المسىء مصيبةٌ فاذا حلَّت به مصيبةٌ سهل عليه أن يحسَّ أنها نتيجة إساءته إليه. وكل إنسان كما قال أناتول فرانس يحس كأنه قطب الدنيا ومحور العالم وكل من يسىء إليه ـ إذاً ـ يكون كأنه خارج على نظام العالم، فلا غرو إذا خاب وفشل!!

٢ ـ وقد يكون الإنسان فظا قاسيًا فى نقد الناس وأعمالهم، ومع ذلك قد يكون رقيق الحاشية والطبع مع أسرته. وبعض الكُتَّاب كان بيده اليمنى يصول بقلم يقطر سما وهلاكًا فى نقد إنسان آخر، وبيده اليسرى يهز أرجوحة طفله الصغير بحنان ورفق... وهذا يذكرّنا هيبير مندوب المجلس البلدى بباريس أيام حكم الإرهاب. وهذا الفارق يعظم أيام الاضطراب والثورات. وقد وصف الدكتور كابانيه فى كتابه لنفروس رفليوسنير كيف أن الإنسان الرقيق الطبع الوديع الأخلاق قد ينقلب ويصير وحشًا ضاريًا إذا كان فى جماعة تحبذ أقواله وأعماله القاسية. وفى هذا مصداق النظرة التالية لجورج اليوت وهى:

٣ ـ عندما نخدع الناس أو نسىء إليهم ونحن وحدنا قد نتردَّد ونتحرَّج من بعض أساليب الخداع أو الشر ونأنف منها ونخشى اللوم ولانريدها إلاَّ للضرورة

القاهرة فإذا اجتمعنا والناس واتفقنا معهم فى تلك الأساليب ووجدنا منهم تحبيذاً لها تسلطت أساليب الخداع أو المكر أو الشر والإجرام علينا، ولم نشعر بصعوبة فى ارتيادها مادام الناس معنا، وهذا ماوصفه وضرب له الأمثال الدكتور كابانيه فى كتابه عن الاضطراب الثورى وأثره فى النفس والجسم.

٤ ـ إن الإنسان قد تكون نظرياته ومبادئه مخطئة، ولكن إحساساته وأعماله نبيلة كما يصدق العكس، فقد تكون نظريات المرء ومبادئه وعقائده سامية نبيلة فيما تكون أعماله بالضد من ذلك. ومن أجل هذا الخلاف ينصح النقاد للمؤرخ أن يميز بين مبادئ رجال التاريخ وبين أعمالهم. وهذه نصيحة واجبة لكل إنسان فى الحياة اليومية أيضًا، إذ كثيرًا ما يخطئ فيظن أن مبادئ المرء وإحساساته وأعماله كلها من طراز واحد، وهى أصناف مختلفة.

٥ ـ إن ذوى النقص والعاهات فى حاجة إلى فضائل ومزايا تزينهم؛ لأنهم يشعرون بقلق إذا لم تكن لهم إلاَّ عاهاتهم، أو كان لهم نقصهم وحده. ولكن الفكرة التى تجعل الفضائل أو الفضل بدلاً لهم ووقاية كما تقى الطبيعة الحيوانات فى الشتاء البارد بفرو كثيف ـ فكرة مبالغ فيها مبالغة كثيرة، إذ كم من أناس من ذوى النقص أو العاهات لافضل لهم ولافضيلة إلاَّ أن يكون الفضل ومزايا النبوغ كامنة فى النفس تظهرها الحوادث سواءٌ أكانت عاهات أم لم يكن نقص ـ فمن الذى يستطيع أن يقطع بأن ذكاء زياد بن أبيه وفصاحته وقدرته فى تصريف الأمور كلها كانت بسبب مطعن أو مغمز فى نسبه ولم تكن هبات طبيعية فى نفسه. ومن أجل ذلك يخطئ بعض العامة خطأً أوليا فى علم المنطق فيقلبون هذه الفكرة ويجعلون الفضل على عاهة أو نقص. وهذا يذكرنا بعض الشواهد التى تصف هذا الخطأ فى علم المنطق كمن يقول مثلاً كل القِطَطَةِ حيواناتٌ. فإذًا كل الحيوانات قِطَطَةٌ، وقلب الفكرة لايجوز فى علم المنطق.

٦ ـ من الغريب أن الناس كثيرًا ما يتعجبون لحدوث شىء هم الذين عملوا لإحداثه، كما يتعجبون إذا لم يحدث أمر لم يصنعوا شيئًا لإحداثه، كالآباء الذين يتعجبون من جهل أبنائهم وقلة تربيتهم وهم السبب؛ إذ لم يحزموا أمرهم

لتربيتهم، والأزواج يتعجبون لفقدانهم المحبة وانقطاع أواصرها بين الزوج وزوجه ولم يعملا لتهيئة سبيل بقائها، والجيران يتعجبون من نفور جيرانهم منهم ولم يعقدوا أواصر المودة معهم.

٧ ـ ما أشد اعتماد الناس على ماقد يأتى عفواً، فإذا عمل المرء عملاً يحط من كرامته تعلق باحتمال عدم ظهوره، وإذا أسرف تشبث باحتمال الكسب من وجه آخر غير منظور ولامحتمل، وإذا أساء تنظيم عمله تمسك باحتمال أن إساءته تنظيم عمله ليست هامة لنجاحه فيه، وإذا خان صديقه اعتمد على أن الصديق قد لايعرف خيانته له. وعاقبة ما نزرع من بذور تلك الأوهام الباطلة فى الاعتماد على الأمر المرغوب فيه الذى هو غير محتمل الحدوث إنما تنتج محصولاً باطلاً ومحالاً من نوعها. وليس الجهلاء وحدهم هم الذين يتشبثون بالمحال المرغوب فيه؛ فقد قال مارمونت وغيره: إن نابليون بونابرت فى أواخر أيام مجده كان مهما صححت له الحقائق يعود إلى ماحسبها قبل تصحيحها.

٨ ـ ما أشد إلحاح الرغبات الإنسانية، فإذا تملكت النفس رغبة لايغنيه أن تقدم له ماهو عوض عنها من أمر آخر ولو كان مثلها أو خيراً منها. وهذا مشاهد فى تشبث الأطفال بالأمر المرغوب فيه، كما هو مشاهد فى تشبث الكبار.

٩ ـ الشعور بالأمن يكون ناشئاً من العادة أكثر مما يكون ناشئًا من الأَدِلَّة والاعتقاد؛ ومن أجل ذلك كثيراً ما يوجد الشعور بالأمن إذا اعتاده الإنسان حتى بعد زوال الأحوال التى جعلته عادة وصيرت الإنسان يسكن إليه ويطمئن، فإن منطق العادة يغلب على ذهنه، ويرى أن الخطر محال حدوثه مع أن مرور الزمن قد يكون السبب فى حدوثه. ومَثَل ذلك مَثَل الرجل الذى يكون سقف بيته آيلاً إلى السقوط، فإذا لم يسقط وتعوَّد الأمان حرمته تلك العادة من أن يرى فى مرور الزمن ماهو كفيل بإيهانه وإضعافه وسقوطه، وقس على ذلك كل أمور الحياة.

١٠ ـ إنها قاعدة عامة وهى أنه لابدَّ للنفس من أمر خفى غير موثوق به كى يُغَذِّى أملها وشكها وعملها، فلو انكشفت لنا أمور المستقبل لما علقت النفس بها ولأسرعت بأملها وعملها وشكها وشعورها إلى غير المستقبل المكشوف

المعروف. . . . وهذا الرأى أصح حجة من تعجب كعب بن زهير من سعى الإنسان وعمله مع أن القدر مخبوء عنه، وذلك فى قوله:

لو كنتُ أعجب من شيءٍ لأعجبنى سَعْىُ الفتى وهو مخبوءٌ له القَدَر

١١ـ إذا تحمل أحد الناس غضبنا بسكوت وطيبة قلب وعطف، فإننا إذا سكن غضبنا قد نشكّ بسبب مسلكه معنا وهدوئه فى مداراة غضبنا فى أننا كنا على حق، ونشك فى أن معاملتنا له كانت معاملة لائقة ويزداد هذا الشك والأسف إذا مات من تحمل غضبنا بسكوت وطيبة قلب، وذهب إلى عالم الصمت الأكبر.

١٢ ـ قال يوليسس فى قصة ثوفوكليس: دعنا مرة واحدة نرتاد سبيل المكر والكذب والاحتيال والشر إلخ ثم نعود بعدها دائمًا أبدًا إلى سبيل الصدق والشرف فى العمل والفكر والوسيلة، وهذا كثيرًا ما تقوله النفس فى باطن نفسها استدراجًا لها ومخادعة، فتستمر فى الكذب والمكر والشر أكثر حياتها بعد أن كانت توهم نفسها أنها مرة واحدة صغيرة ثم بعدها مرة أخرى صغيرة إلخ.

١٣ ـ كل عمل مذموم يستدرج صانعه إلى أعمالٍ وأقوال عديدة مذمومة كى يزكيه ويسوغه، وكى يزكى ويُسَوِّغ الأعمال المذمومة التى يزكيه بها. وتستمر تلك العدوى فى نزعات النفس ورغباتها فإذا أثم المرء لم ينته إثمه بعمله، ولا تنقطع سلسلة آثامه، إلاَّ إذا اعترف بخطئه أو إثمه، فلا يحتاج إذًا إلى شرور كى يزكيه. وإذا ظلم إنسانًا لايقنع حتى يزكيه بظلم آخر. وهذا يذكرنى ما صنعه أحد الكرادلة الذى نقم على رجل نقده فاتهمه بالكفر بالمسيحية فى عهد كان جزاء من يتهم به الحرق. ولم يكتف بذلك بل إنه صهر فى النار صليبًا من الحديد وقدمه إليه كى يتوب ويقبّله وكان الرجل موثقًا فنفر من ألم حرارة انصهار الصليب وزوى وجهه عنه. وإنما فعل عدوه ذلك كى يقال إنه نفر من الصليب لكفره بالمسيحية؛ إذْ كان الناس لايعرفون أنه وضع الصليب الحديدى فى النار. وهكذا زكى هذا الكردنال إثمه الأول بإثم ثانٍ ـ على أن تزكية العمل المذموم أو القول المذموم بعمل أو قول آخر مذموم أمر مألوف كثير الحدوث فى الحياة اليومية.

١٤ ـ كثيراً ما نخدع أنفسنا حتى نصدق أن أثرتها فى معاملة الناس كانت تكون أقل قسوة وأكثر إنصافًا وأبرّ بهم وأعدل لو أننا عرفنا حقيقة حالتهم، ولكن إيثارنا الرفق لايقوى إلاَّ بعد فوز أثرَتنا ونيل أنفسنا ما تريد لا قبل الفوز به. وقد تعرف النفس حالة من تعاملهم، ولكنها تتناساها حتى تنساها، وتتجاهلها، حتى تجهلها، مغالطة من النفس للنفس، كى تدعى أنها كانت تكون أرفق وأبر وأعدل، على أنه بالرغم من هذه المغالطة فإن الفوز قد يزيدها أثرة وعنفًا وقسوة وظلمًا.

١٥ ـ بعض الأخيلة التى نخدَع بها إنما نخدع بها ونحن نشعر بذلك الخداع، واللذة فيه كاللذة التى نجدها فى رؤية مجموعات الألوان التى تصنع من قطع الزجاج الملوّن فتتخذ أشكالاً بديعة فى الفانوس السحرى. وكما أن الطفل يلذ له أن يلعب لعبة أساسها خداع النفس بالأمور وحقائقها حتى يصير لعبه جدا، كذلك العاشق يلذ له أن يخدع نفسه وهو يعرف أنه يخدعها. وهذا يذكرنا قول أبى نواس:

صار جدا ما مزحتُ به ربَّ جد ساقهُ اللعب

١٦ ـ لعل السبب فى أننا كثيراً ما نخيب فى أن نعزى معاشرينا فى مصاب أصابهم ونسليهم عنه أنهم يشعرون ونحن نعزيهم بحبنا لأنفسنا، وأننا إنما نفكر فى كل مايهمنا من مطالب أثرَتنا. وهذا لايمنع أن تكون ممزوجة بشىء من العطف على الناس فى مصابهم وإن كانت هى الغالبة. وبالرغم من أن كل إنسان يعرف ذلك فى نفسه، فإنه إذا أصابه خطب أو مصاب أمَّل أكثر من ذلك من غيره وتوقع مشاركة أعظم منه فى مصابه أو خطبه.

١٧ ـ الحياة اليومية هى محاولة كل إنسان أن يخفى نفسه عن معاشريه وراء كلمات وأعمال مزيفة، وهؤلاء المعاشرون أشد بعدًا عن المرء من نفسه وخواطرها وما بها من شرور لا تنطق بها، ولاتبين عنها، وقد لاتعملها، ومن خير كثير قد لاتصنعه. وكثيراً ما نفكر فى عمل آثام لانستطيع أن نعملها، كما نفكر فى صنع أعمال من أعمال الخير أو اللباقة والمهارة لانستطيع عملها. فخواطرنا قد تكون أسوأ أو أفضل منا. وقد علل سمرست موام القصصى اتهام الأتقياء الأبرار الأخيار أنفسهم أو توقعهم العقوبة فى الآخرة بخواطر السوء التى تتردد فى

النفس ولا تصنع صنعًا، كما أن بعض الناس قد يمدح نفسه بسبب خواطر الخير التى تتردد فى نفسه ولا يعمل شيئًا لتحقيقها.

١٨ ـ كما أن الشاب المملوء صحة وحياة ونشاطًا يصعب عليه أن يدرك الموت كل الإدراك، وأن يحسّ وطأته مهما رأى من مظاهره. كذلك يصعب عليه أن يدرك الشقاء الكارث وأن يحسّ وطأته. وهو يؤمن فى سريرة نفسه أن المقادير لابد أن تنجى شبابه وصحته ونشاطه وحياته منه حتى ولو كان ذلك فى آخر لحظة قبل أن يكرثه. ولعل هذا الإحساس هو سبب استهتار الشباب أو شجاعته واستهانته بمعضلات الحياة.

١٩ ـ مما يساعدنا على أن نعمل فى الحياة عملاً قليلاً طيبًا أننا لانعرف ما فى سرائر أصدقائنا ومعاشرينا عنا مما يثبطنا، وليس فى الحياة مرآة تعرفنا حقيقة أنفسنا فنطمئن. وهذا الاطمئنان يجعلنا نظن أننا نعمل عملاً كبيرًا عظيمًا، فنستطيع بذلك أن نعمل ولو عملاً صغيرًا طيبًا. وكما أن الطفل الصغير الذى لم يتعوَّد نظره الصغير بعد قياس المسافات، كثيرًا ما يصطدم بالأشياء، كذلك الإنسان الذى لم يختبر أمور الحياة بفطنة يحسب أن مكانته فى الحياة مكانة كبيرة وهى صغيرة جدا، ويصطدم بالعراقيل كما يصطدم الطفل الصغير بالأشياء إذ لم يتعوَّد بعد قياس المسافات بنظره.

٢٠ ـ كثيرًا ما يسوِّغ المرء أمورًا غير سائغة ولا جائزة بتغيير أسمائها، فيسمى اضطهاده الناس مقاومة، أو الخرق والهوج إصلاحًا وتجديدًا. وقس على ذلك جميع أمور الحياة التى لاتسوغ، فبتغيير أسماء الأمور يستطيع المرء أن يعمل ماهو حبيب إلى نفسه وإن كان شرا مكروهاً.

٢١ ـ ليتذكر المرء إذا أقدم على عمل أن الحياة كعملية حسابية لايستطاع عملها مرة ثانية لتصحيحها وتلافى أغلاطها، كما لايستطاع تصحيح عمل الطرح بأن يعمل عمل الجمع فى الحساب صحيحاً.

٢٢ ـ إن الناس قد يرحمون الميت وقد يزكونه. وطالما كانوا يرون من الواجب المفروض، سحق قلبه، مادام ينبض وقهر عقله مادام يفكر، فإذا سكنا سكون الموت فلا بأس من الإحسان إليه بكلمات مزيفة وإحساس بالرفق مصطنع.

٢٣ ـ إن تخدير النفس بتجاهل الحقائق حتى تجهلها، حالة نفسية تختلف كل الاختلاف عن حالة السكينة والاطمئنان مع معرفة الحقائق معرفة تامة. ولكنا كثيراً ما نخلط بين الحالتين.

٢٤ ـ أول مايصيب المرء الخطب أو الضيق قد تستفزّه الإصابة المفاجئة فتكسبه قوة مؤقتة لاتزول حتى يصير الحزن والخطب عادةً ونيراً.

٢٥ ـ بعض الناس لايستطيعون تحمل حتى القليل من الإهانة إلاّ إذا استطاعوا أن يغمضوا أعينهم عنها، أو أن يتمكنوا من الامتناع عن تصديقها ومعرفتها والإقرار بها والفطنة إليها ومغالطة أنفسهم فيها. فإذا لم يستطيعوا إلاّ مواجهتها ومعرفتها كانت حياتهم عبئًا ثقيلاً ربما لايقدرون على حمله مع أن كل إنسان لايخلو من أمثالها فى الحياة.

٢٦ ـ إن بعض ذوى النجاح وإن كانوا معروفين بسلامة الطوية والنية قد يجدون لذة فى إيقاع الشر ببعض الناس إذا كان عمله سهلاً ولا يعوق أعمالهم الناجحة. وكأنما يصنعونه على سبيل اللهو أو الفكاهة أو التنفيس عن خطرات كامنة فى نفوسهم أو لإثبات قدرتهم. وهذا الرأى يذكرنى بقصة لسمرست موام عن تاجر إنجليزى فى اليابان كان ناجحًا وكان معروفًا بين أهله ومعاشريه بطيبة القلب، فطلب منه أحد الخُيَّابِ من بنى جنسه أن يجد له عملاً يرتزق منه، وكان هذا الخائب فى شبابه مشهوراً بالسباحة فى البحر قبل أن يصيب الدهر من قوته، فاشترط التاجر عليه أن يسبح مسافة طويلة فى البحر فى مكان شديد التيار، فإذا فاز ألحقه بعمل يرتزق منه. ولكن الرجل هلك فى أثناء سباحته، وعندما سأل سائلٌ التاجر عن سبب اشتراط هذا الشرط قال مبتسمًا: الحقيقة هى أنى لم يكن عندى له عمل، أى أنه كان يعرف أنه هالك لامحالة، وأنواع هذا الشر من أهل النجاح وأمثاله كثيرة الوسائل... وإذا أصاب النجاح خائبًا عفواً من غير جهد كبير منه حقد عليه أهل النجاح الذين كدُّوا واحتالوا للنجاح وعدُّوها قسمة ضيزى، مع أن نجاحه قد لايؤثر فى نجاحهم ولا يقلل منه. وإذا كان هذا الحقد والحسد شأن ذوى النجاح فكيف بما يعانيه التعساء المحرومون.

٢٧ ـ من السعادة أن يعوّد المرء نفسه أن يعيش معها بدل أن يشرئب دائمًا إلى اعتبار الحياة سوقًا يرتاده الناس للتفريج عن أنفسهم برؤية المعروضات. وبَعْضٌ لم يعود نفسه أن يعيش معها لايطيق عشرة نفسه. وهذا من أسباب الحاجة إلى المصادقة والمصاحبة.

٢٨ ـ كثيرًا مانعمل عملاً فلا نرى من الناس ارتياحًا إليه أو اقتناعًا به أو إعجابًا. ولا يثبطنا ذلك، ولا يصرفنا عن عمله، بل نحسب أن سبب عدم ارتياحهم واقتناعهم قلة ما صنعنا منه، فنثابر على عمله توقعًا لظهور ارتياح الناس إليه واقتناعهم به وإن كان غير مقنع.

٢٩ ـ قد يتوقع المرء حدوث الأمر المحال وهو يؤمن إيمانًا تاما أنه سيحدث. ولا فرق بين هذا وبين الجنون إلاّ أن الحوادث قد تبدِّد ذلك التوقع والإيمان، ولا تبدّد الجنون.

٣٠ ـ إن الطبع الذى يميل دائمًا إلى السيطرة والتحكم حتى فى الأمور التافهة الصغيرة لابدّ أن يكون به جانب من الضعة والحقارة ويخفيهما بذلك التحكم.

٣١ ـ بعض اللغات قد تكون فيها طلاوة وحلاوة لايشعر بها من يقرؤها، كذلك بعض الوجوه قد تعبِّر للرائى عن أكثر مما فى أنفس أصحابها من معانٍ.

٣٢ ـ عندما يريد الناس تصديق الأكاذيب أو إذاعتها حتى يصدقها غيرهم يقولون:ـ

لادخان من غير نار... ومَثَلهم مَثَل الذى يُعكِّر الهواء بدخان (بيبته) أو نرجيلته أو لفافة تبغه ثم يحسب أن الدخان والنار من عند غيره وهى من عنده، والأكاذيب أو النقائص التى يراد تصديقها فى نفسه.

٣٣ ـ المصلحون يشعرون بسرور فى كل إصلاح، ولايعطفون على النفوس التى تأسف مع ذلك لما يصيب كثيرًا من الناس فى كل إصلاح من ضرر وألم وشقاء بسبب انتقال الأمور من حال إلى حال عند الإصلاح. والمصلحون لايقتصرون على حرمان تلك النفوس من العطف، بل إنهم قد يعدون أسفها

على من نالهم الشقاء بسبب الإصلاح، خلافًا لهم فى الرأى والمبدأ، أو خيانة لعهد الإصلاح فيشركونها فى الشقاء أو الإعدام.

٣٤ ـ لايستطيع العامل صنع عمل جليل شبه معجز إلاَّ بإيمانه بنفسه، وأكثر إيمان العامل بنفسه مستمد من إيمان الناس به أو إيمان طائفة كبيرة منهم، ولكنه إذا فقد إيمان الناس به، لايلبث إيمانه بنفسه أن يزعزع مهما كان عظيمًا، إلاَّ إذا كان قليل الإحساس لايلتفت إلى حقائق العالم. على أن العامل قد يكون هو الذى خلق إيمان الناس به فى أول الأمر.

* * *

obeikandl.com

تكملة نظرات جورج أليوت سويفت[1]

ـ ١٥ ـ

١ ـ بين النساء من يدفعها طبعها إلى الحماقة حينًا بعد حين وتستنفد جهد شراستها فى وقت قليل ولا تستعيده إلاَّ بعد مدة من الزمن فيستريح أهلها. ولكن بين النساء من تعد من أهل الخير والتضحية ومحبة ذويها وهى لاترفع صوتها فى شراسة، ولكنها لاتفتأ طول يومها تنكد حياتهم بصوت منخفض باللوم والشكوى والتأنيب والمخالفة وبتذكيرهم أحزان أمس وما قد يُتَوَقَّع من أحزان غدهم، وتبكى إذا سمعت خبرًا سارا، كما تبكى إذا سمعت خبرًا محزنًا، فهى دائمًا بين بكاء السرور وبكاء الحزن. وهذان الصنفان مشاهدان فى الرجال أيضًا، وإن كان البكاء أغلب على النساء، فأى الصنفين أثقل على القلب؟ المشاهد أن الناس يفضلون الصنف الأول مهما كانت شراسته؛ لأنه يعطى معاشريه فترات راحة. ومن أجل ذلك قد يمدح معاشر الرجل الشرس هذا الشرس فيقول (قلبه طيب ـ أو قلبه أبيض) وربما كان السبب أن صاحب الوقاحة والشراسة إذا هدأت حدَّة طبعه شعر باعتدائه على الناس بهما، فيلين ويلطف، وملاطفته لشدة اختلافها عن شراسته ولأنها غير متوقعة تكون ذات أثر أعظم فى النفس مِمَّنْ ملاطفته الناس أمر معتاد مألوف. أما الملاطفة الممنوعة النادرة فهى تفاجئ النفس مفاجأة سارَّة كما قال الشاعر (أحب شىء إلى الإنسان ما مُنِعا).

أما الرجل والمرأة من الصنف الثانى فإنهما لدأبهما على الشكوى والتململ واللوم والتذكير بالأحزان يكادان يبلغان بأهلهما إلى درجة الجنون، وأشد من

(١) المقتطف :أول مايو سنة ١٩٤٩.

هذين الصنفين الرجل والمرأة اللذان يجمعان صفات الصنفين: شراسة متقطعة وتململاً دائمًا.

٢ ـ للطبيعة لغة، وهى لغة صدق لاتكذب، ولكنا لانعرف قواعدها فنخطئ إذا حاولنا معرفة معناها، ونحسب أن العين الفاترة الفاتنة الساحرة ذات الأهداب الجميلة الطويلة دليل على الصدق والأمانة، ولكن صاحبتها قد تكون ورثت عينيها عن جدَّتها، وورثت أخلاقها وطباعها عن مصدر وراثى آخر، فتجمع بين العين الفاترة التى تدعو إلى الاطمئنان، وبين الغش والمكر والخداع والشر. وهذه الفكرة أصدق من قول الفيلسوف الألمانى نيتشه فى وصف سقراط الحكيم الإغريقى القديم الذى كان ذا وجه شنيع، وكان مشهورًا بالحكمة والعفة والفهم والأمانة والصدق. ولكن نيتشه الفيلسوف الألمانى يقول: إن من نظر إلى صورة سقراط يستطيع أن يستدل منها على أنه كان مجرمًا بطبعه. وهذه مبالغة لامُسَوِّغَ لها؛ فإن خواطر الإجرام تتردد فى كل نفس كما قال فرويد. وقد يكون المجرم شنيع الوجه وقد لايكون. فقد رأيت فى كتاب عن المجرمين صورًا كثيرة لبعضهم جمعت بين الجمال والسماحة والطلاقة؛ فالقبح أو الجمال ليس دليلاً قاطعًا على الصفات النفسية الغالبة.

٣ ـ الصانع الماهر الذى يحفزه ضميره الطاهر يحجم عن صنع آلة غير محكمة الصنع؛ لأنها قد تضر من يقربها أو يستعملها، ولايعرف الصانع مقدار الأضرار المتتابعة التى تسببها سببًا عن سبب. وكذلك كل إنسان ينبغى أن يتذكر أن عمله قد يكون له نتائج بعيدة غير منظورة. وكذلك أقوال المرء يصدق فيها مايصدق فى أعماله وربما استحال عليه أن يتحاشى كل عواقب أعماله وأقواله كما أوضح أناتول فرانس فيما اقتُبِس من نظراته. ولكن استحالة معرفة نتائج الأعمال والأقوال (أى النتائج والعواقب المتتابعة القصيَّات) لاتمنع من محاولة التبصر قبل القول والعمل ـ ولا أظن أن مفكرًا فى العصور الحديثة كانت لآرائه عواقب ونتائج ومذاهب غير منظورة كما كانت لآراء جان جاك روسو ـ ولقد قال هنرى فردريك أمْييل: كل المذاهب الحديثة المختلفة فى نواحى الحياة يمكن إرجاعها إلى روسو. ومن الغريب أن روسو كان حييا يحب العزلة وينفر من الاجتماع

بالناس. ويسىء بهم الظن. وكان يخشى وينفر من الثورة التى كان يتوقعها ويحاول منعها بالإصلاح. وكان يقدس حريات الفرد إلى أقصى حد كما فى رسالته (أسباب تفاوت الناس) ومع ذلك فقد تشعبت مذاهب وعواقب أفكاره ومذاهب معتنقيها أيام الثورة الفرنسية. وهو فى كتاب (العقد الاجتماعى) يذكر آراءً يستطاع بها تقييد حريات الفرد إلى حدٍّ كبير، وهذا التناقض أيضًا ظاهر فى كتابه المسمى (إميل) فى التربية، فهو يريد من المربى أن يترك تلميذه حرا يستنتج عواقب ونتائج أعماله بنفسه.

ومع ذلك فالمربى الذى وصفه وأراده كان أحيانًا يتجسس على تلميذه ويهيئ له النتائج التى يريدها ـ ومن أجل ما وصفت من الفرق بين طبع روسو وبين آرائه يخيل لى أنه لو كان عائشًا فى باريس أيام حكم الإرهاب لسيق إلى الجيلوتين وأعدم لتخلف رجل الفكر عن رجل العمل، وذلك بالرغم من أن حُكَّام الإرهاب كانوا قد اعتنقوا مبادئه.

وبالعكس قد يصاب صاحب الفكرة الجديدة أو المبدأ أو الشريعة لتخلف الناس عنه، وأذكر قصة أظن أنها لدستويفسكى القصصى الروسى، وبها يتخيل أن سيدنا عيسى عليه السلام قد بُعثَ مرة ثانية فى أوربا ودعا الناس إلى الأخوة والتعاون والسلم والمحبة فخشى بعض الحكام دعوته وضاقوا به ذرعًا وحاولوا أن يصلبوه مع أنهم على دينه.

٤ ـ إن أعظم حوادث حياتنا تأتى وتروح كما يأتى الليل والنهار والنوم واليقظة والمطر والصحو والحصاد. ولانستطيع تعيين أوقاتها لها كما تشاء، وربما جاهدنا وعملنا، ولكن جهدنا وعملنا قليلا الأثر إذا قيسا بضرورة المقادير التى تعمل عملها وتحدث نتائجها بالرغم منا ومستقلة عن عملنا ـ ولعلَّ هذا من أسباب ما لوحظ فى نظرة فى المقال السابق من شدة اعتماد الناس على ما قد يأتى عفوًا وهو غير مضمون الحدوث. ولو أن من أسباب هذا الاعتماد أيضًا ميل النفس إلى تصديق احتمال حدوث ما تود أن يحدث حتى تكاد من شدة هذا الميل تراه حقيقة واقعة. وكذلك تميل النفس إلى تصديق ماتود أن يكون من أحوال غيرها من الناس. ومن صفاتهم إن خيرًا وإن شرا وحمدًا أو ذما. وكما أن النفس تميل

إلى تصديق ما تود أن يكون حقيقة فهى وإن كرهت حدوث ماتخشى حدوثه، واذا تملكها الخوف والذعر حتى يصير الذعر مرضًا - تميل إلى تصديق حدوث ماتخشى حدوثه حتى كأنه حقيقة واقعة. ولعلَّ بعض الأمراض من هذا النوع من الوهم الذى سببه الخوف. وهذا الميل النفسى إلى تصديق ما تود النفس أن يكون كأنه حقيقة كائنة هو مسألة سيكولوجية ثابتة. وكذلك التأثر بالذعر حتى تعتقد سببه حقيقة كائنة. وأغرب من هذا وذاك أن الإنسان قد يصاب بأمراض لامن الذعر، ولكن لأنه يود أن يصاب بها، فيميل إلى تصديق مايود أن يصاب به حتى يصاب، وإنما يود ذلك إما لينال التدليل والإعزاز والعناية والعطف كما هو نصيب المريض. وإما تشفيًا وانتقامًا ممن وُكِل إليهم أمره كى يكلفهم عناء فى رعايته أثناء مرضه. وإما لأنه يشعر فى ضميره أنه أراد السوء لمن لم يصبه بضرر فيدفعه ضميره إلى تصديق وقوع السوء بنفسه فيصاب. وكل هذه الأمور تذكرنا قول (جويتى) الأديب الألمانى إذ قال: كما أن روما القديمة كان بها فضلاً عن سكانها من الأحياء، سكان من التماثيل العديدة المنصوبة فى كل مكان. كذلك هذه الحياة الدنيا يوجد فيها دنيا من الأوهام وعَالَم من الخيالات، وهى أعظم أثرًا وأتم قدرة فى نفوس الناس وحياتهم، وأكثر الناس يعيش فى هذه الدنيا الثانية.

٥ - لابدَّ أن يكون فى نفوس الناس شىء من كذب السريرة مهما تخلقوا بالعدل والصدق، فإن أفضل رجل إذا حادث إنسانًا لايود أن يؤلمه يضطر فى محادثته له أن يميل قليلاً إلى رأيه ملاطفةً له، أو لعله غير قادر على التعبير عما فى نفسه، أو لعله لا رأى له فى موضوع الحديث فيجتبى رأى غيره يسد به فراغًا فى نفسه. وكل هذه الأحوال كأمواج فى بحر الإنسانية، ولابدَّ أن يسير المرء بسفينته بينها. فمن الحكمة ألا نحقد على الناس من أجل ذلك، وألا نيئس من النفس الإنسانية إذا انقادت بعض الانقياد ودلَّ انقيادها على كذب السريرة.

٦ - إذا كانت آلام كفاحنا فى الحياة لاتخلف إلاَّ نفوسنا كما كانت قبلها مع مافيها من تحيُّز للباطل ومن أثَرة وقلة مبالاة عظائم الأمور، فإننا نكون قد تألمنا فى هذا الكفاح ولم نربح فضائل أو صفات سامية. ولكن هذا الألم قد يتحوَّل

إلى عطف به نكون أكثر قدرة على فهم الأمور كما تتحوَّل القوَّة إلى قوة أخرى فى علم الطبيعة.

٧ ـ خليقٌ بالمرء قبل أن يحاول فهم الكون كله ـ وييئس إذا لم يستطع فهمه ـ أن يحاول فهم ما حوله من الحياة أولاً؛ لأن الزمن كالمال إنما يقاس بمقدار حاجتنا إليه. وهذه الكلمة أوسع نطاقًا من قول الفيلسوف الإغريقى القديم (اعرف نفسك) وقد فسَّر جويتى هذه الكلمة بقوله إن الإنسان لايستطيع أن يعرف نفسه بالتأمل الفكرى وحده، بل لابدَّ أن يكون التأمل فى النفس مقرونًا إلى العمل وأداء الواجب، وفى أداء الواجب اليومى يستطيع المرء أن يختبر نفسه وأن يعرفها بالتأمل، وقد أعجب كارليل برأى جويتى وأعاد ذكره مرارًا.

٨ ـ إننا كثيرًا ما نعتز بماضى حياتنا حتى ولو تغيرت أفكارنا وتبدَّل شعورنا، وصرنا إنسانًا آخر بهذا التغير. ولذلك قلما نرضى عن نقد ذلك الإنسان الأول الذى كُنَّاه فى الماضى بل نتلمس له ما يزكيه كراهة لتخطئة أنفسنا القديمة كل التخطئة، وذلك لأنها بالرغم من كل شىء أساس أنفسنا الحديثة.

٩ ـ قلما تستطيع الأقدار أن تنتقم منا بسلاح من أنفسنا تتخذه ضدنا من تألمنا لما سببنا لغيرنا من الآلام، إلاَّ إذا وصف الناس عملنا فى إيلام غيرنا بأوصاف شنيعة، أو إذا خشينا ذلك، فعندئذ يتيقظ ضميرنا ويتيقظ إحساسنا الخلقى ويؤنبنا، وربما كان لايؤنبنا لولا لوم الناس وتأنيبهم.

١٠ ـ كثيرٌ من عيوب الناس وغرائب طباعهم سببها أحزان وأحاسيس وحوادث مثَّلَتْ بالنفس تمثيلاً، والحياةُ التاقهة غير الثابتة أو الحياة الضالة التى يحياها إنسان والتى نلوم صاحبها عليها قد تكون كحركة الرجل الذى فقد بعض أعضائه وقد تكون نفسه كجذع الشجرة التى قطعت غصونها وأوراقها ـ وهذا قول مبكر فيما يسميه علماء النفس فى هذا العصر العُقَد النفسية.

١١ ـ إننا نستطيع أن نحس روح الله فى كل أمر. ففى الأعمال والمخترعات الكبيرة أو فى أعمال الصناعات الصغيرة نستطيع أن نرضى الله بأعمال أيدينا كما نرضيه بأعمال نفوسنا، وأن نعمل الخير ونتقرَّب إلى الله بالأعمال المنزلية

والزراعية، كما نرضيه ونتقرَّب إليه بالصلاة؛ لأن كل عمل يؤدَّى بصدق وأمانة إنما هو تقرُّب إلى الله.

١٢ ـ ولكن بعض الناس إذا أدّوا الصلاة يوم الأحد فى الكنيسة حسبوا أنهم أدّوا كل واجبهم نحو الله فتستريح ضمائرهم وتجيز لهم أمورًا كثيرة ويعدون الحياة منصبًا مربحًا، أو متجرًا مكسبًا، بدل أن يعدوها واجبًا يقتضى الجهد والتضحية والعمل.

١٣ ـ إن قول شكسبير فى قصة ما كبيث: إن الإنسان لايستطيع أن يكون فى أمور مختلفة فى وقت واحد إنما يراد به الأعمال ولاينطبق على الإحساسات والخواطر، فإن لحظة واحدة صغيرة أو أقل من لحظة قد تكون بين خاطرة الميل إلى القتل فى النفس، وبين خاطرة الرجوع عنه والتوبة والندم. وربَّ دقيقة واحدة قد تجمع بين النزعة الشريفة والنزعة الدنيئة فى النفس. فالحقيقة هى أن النفس الإنسانية لاتجمع بين الأضداد فحسب، بل تجمع بينها فيما يكون أشبه بالوقت الواحد. وهذا مالا يفطن إليه الذين يحكمون على النفوس بخطراتها ونزعاتها.

١٤ ـ فينبغى أن نصحح أحكامنا العامة على الناس تصحيحًا دائمًا مستأنفًا أولاً فأولاً بالخبرة وضرورات الحياة وبما فى النفوس البشرية من قهر وإلزام مع مراعاة الواجب المفروض وتنوعه فى الحالات المختلفة. فإذا نقدنا إنسانًا نقدناه من غير التجاء إلى الكذب والباطل والمبالغة. وهذه أمور قد تتسرّب إلى رأينا: إما عن طريق الشهوات، وإما عن طريق تطبيق أحكام عامة مطلقة وضعها من لايميز الأمور بالتجارب والخبرة.

١٥ ـ كثيرًا ما تدهشنا الشدة ونباغت بها من أناس عُرِفوا باللين. والسبب فى ذلك أن لينهم من اطمئنانهم إلى عودة وقوع الأمور المألوفة المعتادة. فإذا جاء غير المألوف ارتاعوا وظهر ارتياعهم فى شدتهم وعنفهم. ودلَّ ذلك على نقص فى خبرتهم لأمور الحياة ونفوس الناس.

١٦ ـ يخيَّل لنا أن بعض الناس يجدون لذة فى حماقتهم وشراستهم وغيظهم

حتى أنهم يحرمون أنفسهم من مسرات كثيرة ممتعة، كى يتمتعوا بلذة الحماقة والغيظ.

١٧ ـ قد تجتمع فى بعض النفوس صفات هى الشدَّة والشعور بأنها صالحة وحب السيطرة على غيرهم مع ضيق فى الفكر والخيال. فإذا اجتمعت هذه الصفات فى أناس لم يكن سبب نفورهم من إنسان واضطهادهم إياه تلك المعرفة الممزوجة بالجهل والشك والتى يسمونها الحقيقة. ولكن السبب أنهم فى حاجة إلى أن يملئوا فراغهم من الفكر، وأن يسدوا ثغرة فى التأمل، وأن يخفوا خلوهم من الحكمة، وأن يشبعوا حب سيطرتهم على غيرهم، وأن يباهوا الناس بصلاحهم، وأن يقنعوا غيرهم به ـ وهذا إذا كانوا على شىء من الفضل. وقد يكون السبب شعورهم بنقيصة فى أنفسهم يقتصون لها بالتشفى وبالكيد لغيرهم، أو يكفِّرون عنها بانتقاص غيرهم واضطهاده.

١٨ ـ ثق أنك إذا رأيت إنسانًا يدَّعى أنه أطيب نفسًا ممن هم حوله، فهو إما أن له أربًا يخفيه بادعاء ذلك، وإما أن نفسه قد تغلغل فيها الكبر الروحانى ودنس العجب النفسى وهذان الكبر والدنس يختلطان بفضله فيفسدانه كما تفسد العفونة المأكولات.

١٩ ـ تنتقل النفس من الصدق إلى الغش فى معاملتها لنفسها. ثم ترى الغش خطة ضرورية تسوغها بلباقة، فترى جمال الأعمال وقبحها من نسيج واحد. وكما أن الدول قد تأخذ على دولة عملاً عدائيا ثم تذعن لمايسمى فى عرف السياسة الأمر الواقع. كذلك النفس تذعن للأمر الواقع منها حتى تفاجأ بالقصاص.

٢٠ ـ إن الرجل الذى ليست له ثقة بنفسه قد يكتسب ثقة بنفسه إذا عاشر رجلاً له ثقة كبيرة بنفسه؛ إذ أن للثقة بالنفس عدوى، ومثل ذلك مثل الذى أصابه البرد يأنس إلى من لفحه الحر ليدفئ نفسه بحره فيقل أثر القر فيه ـ على أن هذه المعاشرة قد تأتى بعكس ذلك إذا خشى الأول أن يقحم نفسه فيما يقحم الثانى فيه نفسه بالإقدام من ثقته بها، وفى مثل هذه الحال إذا لم يُجَار الأول

الثانى فى إقدامه وثقته بنفسه. يوشك أن تنفصم عُرَا الصداقة والمعاشرة، إلاَّ إذا لم يكن ملزمًا بهذا الإقدام. وإذا أقدم وحيل بينه وبين باعث ثقته ولاقى صعوبات أو خصومات كُشِفَ ضعفه. وإنما مَثَلُهُ حينئذ مَثَلُ السلك الذى يُزَوَّد بالكهرباء فإذا فصل عن مصدر الكهرباء فقد قدرته الكهربائية.

٢١ ـ إن المرأة مهما كانت معجبة بنفسها لاتشعر بجمالها وحلاوة أنوثتها شعورًا تامًا إلاَّ إذا أحبها رجل. فإن حبه يزيدها ثقة بقدرة ملاحة أنوثتها، فتتيقظ وتحس إحساسات ماكانت تحسها من قبل. وهذا هو سبب قدرة الرجال على خداع النساء؛ فإن الرجل إذا أتقن تمثيل مظاهر الحب أحست شكرًا له وعطفًا عليه، وهذا ما كان يصنعه لاندرو قاتل النساء فى فرنسا، فإنه كان يقنع المرأة أنها ذات جمال وحلاوة أنوثة، فتنقاد له وتطيعه طاعة من نُوِّم تنويماً مغناطيسيا، إذ الإيحاء النفسى شبه تنويم.

٢٢ ـ فى بعض الأحايين ترى سفينة تعجب الرائى وتحسبها محكمة الصنع وتقبل شركات التأمين أن تؤمن عليها، فإذا صادفتها أول عاصفة شديدة غرقت واتضح أن ذلك كان بسبب عيب خفى فى بنائها، ونقص مستور فى تركيبها. وكذلك الإنسان يعجب الرائى فإذا صادف أول محنة أو امتحان لنفسه ولقدرته النفسية أو بدهه خطب لم يكن يتوقعه أو أمر من أمور الحياة مفاجئ غير منظور ظهر من طباعه ماكان خفيا وتغير أو تدهور أو تخبط، فيكون حاله كحال تلك السفينة.

٢٣ ـ يُشَبِّه بعض المؤلفين طبيعة الإنسان بطبيعة الموجودات ويقولون: إنّ الطبيعة تصلح ما أفسدته بالضياء والماء والهواء وبتجديد النمو، ولكن الشجرة التى قد اقتلعت أو صعقت لاتعود إلى النمو وإن نمت غيرها، والتلال التى بعثرت لاتتجدد وإن نشأت غيرها، فليس هناك إصلاح حقيقى تام فى طبيعة الموجودات أو فى طبيعة الإنسان.

٢٤ ـ يقولون إن الإنسان إنما يجنى فى الحياة ما يزرع، ولكن هذا ليس كل الحق، فكما إن الإنسان يجنى ما يزرع فإنه قد يجنى مالم يزرع، كما أنه قد يجنى

من النبات والزهر والأشجار مالم يزرع وما ينمو بنفسه أو بعمل غيره، وهذا يصدق فى الخير كما يصدق فى الشر.

٢٥ ـ إذا عظم إحساسنا إلى حد كبير نما الإحساس إلى درجة يخلو فيها من حب النفس الذى ابتعثه ويصير نارًا تتطلب كل شىء فى النفس وقودًا لها وغذاءً للهيبها. وهذا يفسر لماذا ننكر أن إحساسات المرء وأعماله الصادرة عن إحساساته التى تضره سببها الأثرة وحب الذات غير مدركين أن الإحساس فى درجاته المختلفة وحالاته المتغايرة يتغير طبعه وتتغير نتائجه.

٢٦ ـ قد ننسى أن الإنسان تصيبه عواقب مايجنى غيره وإن لم يكن هذا الإنسان له صلة بالجناية واشتراك فيها. أليس العدل نفسه يعاقب من هم فى حاجة إلى الجانى أو لهم به صلة إذا عاقبه فيعاقب من يعول إذا انقطع عنهم رزقهم بالعقاب أو يعاقب أقاربهم فى سمعتهم وباضطهاد الناس لهم وذمهم بسبب جريمة قريبهم.

٢٧ ـ فى أوقات الحزن الشديد تكون فترات تتخللها. وفى هذه الفترات لايتذكر المرء حزنه، بل يتذكر حادثًا تافهًا لاصلة له بحزنه كأنما تعفيه طبيعته فى تلك الفترات من تذكر حزنه والانشغال به كى يستطيع أن يعاود تحمله وهو فى تلك الفترات لانشغاله بالأمر التافه بدل الانشغال بموضوع حزنه يكون كأنه أصابه بلهٌ مؤقت.

٢٨ ـ أهل الريف إذا كانوا فى بقعة منعزلة وحلَّ بأرضهم غريب أساءوا به الظن، كأنه أتى إليهم من عالم مظلم مجهول كالعالم الذى تهاجر منه الطيور شتاءً إلى أرض الدفء والنور؛ ومن أجل ذلك يتوقعون من ذلك الغريب أى شىء غريب مهما كان عمله وقوله مطابقًا للمألوف، ومهما صدر من نفوسهم مما يخالف العرف المألوف، فإذا ارتكب إثمًا أو جنى جناية بعد زمن طويل وبعد مزاولة الخلق المألوف زعموا أن ذلك مصداق لما توقعوا منه من أول الأمر. فالذى يولد بينهم يكتسب بولادته شيئًا من الثقة به والألفة له، أما من لم يولد بينهم فكأنما وُلد وجاء إلى هذا العالم فى نظرهم بطريقة غير طبيعية مثل طرق

الشعوذة وحقيقة هذا الحذر من المجهول مشاهدة حتى فى نفوس الناس إذا حذروا ممن ينقطع عن زيارتهم ومعاشرتهم أو مجالستهم، ولعلها ناشئة عما فى النفوس البشرية من أمور مجهولة ومن غريزة تمكنت فى النفوس من قديم الزمن من عهد الكهوف وسكانها، ومن عهد كان كل إنسان يخشى كل إنسان ويصون حياته بذلك الخوف..

٢٩ ـ إن بعض ما يسميه الناس خيالاً إزراءً به قد يكون تعلقًا بحياة أتمّ وأعظم وبحقيقة متوقعة فى المقبل من الدهر، فبطولة الواحد الفرد أو الآحاد القليلين التى لاتؤثر أثرًا كبيرًا قد يعدها الناس تعلقًا بالخيال، ولكننا نخطئ إذْ نقسم البطولة الإنسانية وهى متصلة مهما خفى اتصالها وكل منها قدوة. وهذا الخطأ كالخطأ فى تقسيم وحدات الجيش إلى آحاد أو الخطأ فى تقسيم أشعة الضوء محاولة لمعرفة قدرة الجيش أو الضوء.

* * *